البابُ الثّاني

جهودُ «البهيِّ» في الإصلاحِ العلميِّ والاجتماعيِّ

- الإصلاحُ الدِّينيُّ والتّربويُّ .
- الإصلاحُ السيّاسيُّ .
- الإصلاحُ في سبيلِ الرّعايةِ الاجتماعيّةِ .
- مظاهرُ التجدّيدِ في مجالِ منهجِ «البهيِّ» العلميِّ .

الفصلُ الأوَّلُ

الإصلاحُ الدِّينيُّ والتَّربويُّ

- الإصلاحُ في الأزهرِ .
- الإصــلاحُ في أُســلوبِ إداراتِ الــوعظِ والإرشادِ .
- الإصلاحُ في المساجدِ .
- الإصلاحُ في المناهجِ التَّعْلِيمِيَّةِ .

المبحثُ الأوَّلُ

الإصلاحُ في الأزهرِ

حملَ الأزهرُ الشّريفُ على كاهلِهِ ـ مُنذُ تأسيسهِ في عهدِ الدَّولةِ الفاطميَّةِ، عامَ ٣٦١هـ/ الموافق ٩٧٢م ـ رسالةَ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ؛ لأنَّهُ بدأ يُمثِّلُ مهامَ المؤسَّسَةِ الرَّسميَّةِ للتَّعليمِ الدِّينيِّ الإسلاميِّ، وعُنيَ في بادئ الأمرِ باتِّجاهِ المذهبِ الفاطميِّ، والشيعةِ عُموماً.

ثمَّ تحوَّلَ إلى العنايةِ بالمذهبِ السُّنيِّ، في عهدِ الدَّولةِ الأيوبيَّةِ، ولم يزلْ يُعنى بهِ حتّى اليوم، ومن أجلِ ذلكَ تُعتبرُ القاهرةُ مركزاً للاتّجاهِ السُّنيِّ في العالمِ الإسلاميِّ.

(وعندما تمَّ بناؤُهُ [أيِ الأزهرُ]: حُبِسَتْ عليهِ مِنَ المُتَبرِّعينَ الخيِّرينَ، بعضُ مصادرِ الثَّروةِ للإنفاقِ على شؤونِ التَّعليمِ فيهِ ـ سواءٌ ما يتعلَّقُ بالمُدرِّسينَ أو بالطُّلابِ ـ ليظلَّ بعيداً عنِ الإنفاقِ الحكوميِّ، وبالتّالي بعيداً عن سياسةِ الحكومةِ القائمةِ، وبذلكَ يكونُ مُستقلاً، ويكونُ علماؤُهُ مُستقلينَ فيما يُعلنونَهُ مِنْ رأيٍ ينسبونَهُ إلى الإسلامِ، أو مِنْ موقفٍ إزاءَ حَدَثٍ مِنَ الأحداثِ، في أيِّ مُجتمعٍ مِنَ المُجتمعاتِ الإسلاميّةِ.

وكانَ شيخُ الأزهرِ، هو الرّاعي لشئونِ تعليمِ الدِّينِ فيهِ، وشئونِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، كما كانَ هوَ النّاظرُ على أوقافِ المُسلمينَ الخيريّةِ.

ثُمَّ إنَّ مِنْ وسائلِ الاحتياطِ في التَّعبيرِ عَنِ الرأيِ السَّدِيْدِ لعُلماءِ الأزهرِ الشَّريفِ، وضمانِ استقلالِ رأيهم: هوَ عَدَمُ خُضوعِ الأزهَرِ لِمَيْلٍ سياسيٍّ مُعيَّنٍ،

تُمليهِ جهةٌ لها نُفوذٌ عليهِ . لذلكَ كانَ تمويلُ الحركةِ التَّعليميَّةِ فيهِ مِنْ مصادِرِ الخيرِ : وهيَ الأوقافُ التي تُحبَسُ على الخيرِ العامِّ ، إذْ يتنازلُ عنها أصحابُها ، بُغيَةَ الرِّضا مِنَ اللهِ تعالى ، والتَّقرُّبِ إليهِ ، وفي مُقدّمةِ مفهومِ الخيرِ في نَظرِ الواقفينَ : العنايةُ بالدَّعوةِ الإسلاميَّةِ والتّعليمِ ، رِعايةً واهتمامًا .

كانَ علماءُ الأزهرِ وطُلابُهُ إذاً ، يعيشونَ في ظلِّ هذا الاستقلالِ ، يرعَونَ فقط شيئاً واحداً فحسْبُ : هوَ دينُ اللهِ وتعاليمُهُ : درساً وبحثاً ، تعليماً ونشراً ، مُحافظينَ في أقوالِهم باسمِ الإسلامِ ، على أنْ يُجنّبوا أنفسَهُم - بقدْرِ ما يُمكِنُ - الخُضوعَ تحتَ تأثيرِ أيِّ مؤثّرٍ داخليٍّ أو خارجيٍّ)[1].

عاشَ الأزهرُ ظاهرةَ الاستقلالِ ، ردْحاً مِنَ الزّمَنِ ، يقومُ التّعليمُ فيهِ على أساسٍ مِنَ الدِّينِ الإسلاميِّ ، ليسَ كأيّةِ مؤسّسَةٍ تعليميّةٍ أُخرى ، تَنشُدُ الثّقافةَ الإنسانيَّةَ . فالمعرفةُ التي كانَ يُمارسُها معرفةٌ دينيّةٌ ، وأهمُّ فُروعِها : الفقهُ ، تفسيرُ القُرآنِ الكريمِ ، الحديثُ الشّريفُ ، وعلمُ التّوحيدِ . وما يدورُ في فَلَكِ هذهِ الدّراساتِ ، مِنْ عُلومٍ مُساعِدَةٍ أُخرى : كاللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها ، وأُصول الفقهِ ، والسيرةِ النّبويَّةِ ، والتّاريخِ الإسلاميِّ . رائدُهُم في هذا ودليلُهُم قولُهُ تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف:١٠٨).

فالعبرةُ المُستوحاةُ مِنَ الآيةِ الكريمةِ ، هي : توجيهُ الرّسولِ «مُحمَّدٍ» ﷺ ، إلى السيْرِ بالرِّسالةِ الإسلاميّةِ ، والعقيدَةِ الإيمانيَّةِ قُدُماً ، وعدَمِ الوقوفِ عَنْها بسببِ اعتراضِ المُعارضينَ . (وفي هذا تكليفٌ مِنَ اللهِ تعالى لنبيِّهِ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ ، بالإعلانِ عَنْ أنَّ دعوتَهُ إلى الوحدَةِ في الألوهيَّةِ هيَ دعوتُهُ إلى اللهِ تعالى .... وإنّهُ إذْ يدعو إلى ذلكَ ، يدعو مُتأكّداً ، هُوَ ومَنْ يُقاسِمونَهُ الإيمانَ ،

---

(١) محمد البهي : غيوم تحجبُ الإسلامَ ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

ويتّبعونَهُ في رسالتِهِ . . . . لِذا مِنْ أجْلِ دعوتِهِ للوحدةِ في الألوهيَّةِ ، يُنكِرُ الشِّرْكَ باللهِ ، كما أنَّهُ ليسَ واحداً مِنَ المُشركينَ على الإطلاقِ)[(١)].

هذهِ هيَ الطّريقُ التي كانَ يسيرُ عليها الرّسولُ مُحَمَّدٌ ﷺ ، هيَ طريقُ الدّعوةِ إلى اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، على وجهِ التأكيدِ . إنّها طريقُ الدّعوةِ على بصيرةٍ ، بعلمٍ ويقينٍ ، ومعرفةٍ تُميِّزُ الحقَّ مِنَ الباطلِ . كذلكَ الّذينَ يُؤمنونَ باللهِ سبحانَهُ وتعالى ، ويتأسَّونَ بالرّسولِ ﷺ ، فإنَّهُم يجعلونَ الدَّعوةَ إلى اللهِ تعالى : هيَ سبيلُهُم ومنهجُهُم في هذهِ الحياةِ الدُّنيا ؛ لذا كانَ الأزهرُ يغرِسُ في نفوسِ طُلابِهِ ، فُنونَ أدواتِ الدَّعوةِ والتَّبليغِ ، حاثّاً لَهُم على الاحتياطِ في الفتاوى ، والابتعادِ عنِ الشُّبهاتِ ؛ لأنَّهُم يُوقِّعونَ نيابةً عنْ دينِ اللهِ تعالى ، الذي ينبغي أن يُحبُّوهُ ، ويفتدوهُ بأرواحِهِم ؛ لكي يكتمِلَ إيمانُهُم ، ويجدوا حلاوةَ هذا الإيمانِ . عنْ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حلاوةَ الإيمانِ : مَنْ كانَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممّا سواهُما ، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ للهِ ، وأنْ يكرَهَ أنْ يعودَ في الكُفرِ - بعدَ أنْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ - كما يكْرَهُ أنْ يُقذَفَ في النّارِ »[(٢)].

وعنِ العبّاسِ بنِ عبدِ المُطّلبِ رضيَ اللهُ عَنهُ : أنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رضيَ باللهِ ربّاً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمُحمَّدٍ رسولاً »[(٣)].

هكذا درَجَ الأزهرُ منذُ تأسيسِهِ ، أنْ يُربِّيَ خريّجيهِ على التّلذُّذِ بالطّاعةِ ، وتحمُّلِ المشاقِّ في سبيلِ الدّعوةِ لدينِ اللهِ تعالى ، وإيثارِ ذلكَ على جميعِ

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن الكريم « تفسير سورة يوسف » ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، لا . ط ، لا . ت ، ص٥٦ ، ٥٧ .

(٢) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري : مختصر صحيح مسلم ، اختصره ، عبد العظيم عبد القوي المنذري ، حقّقه وعلّق عليه ، وخرّجَ أحاديثَهُ ، مصطفى ديب البغا ، رقم الحديث « ٢٢ » ، ص٢٠ .

(٣) المرجع السابق ، رقم الحديث « ٢٥ » ، ص٢٠ .

عَرَضِ الدُّنيا الزّائلِ . كما عوّدَهُم على أنْ تكونَ محبّةُ العِبادِ للهِ تعالى : بفعلِ طاعتِهِ وتركِ مُخالفَتِهِ ، كذلكَ محبَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ أيضاً . وبذلكَ يكونُ الحُبُّ والكُرْهُ بينَ المؤمنينَ ، للهِ وباللهِ سبحانَهُ وتعالى وحدَهُ خالصاً ، لا تَشُوبُهُ شائِبَةُ شِرْكٍ .

ثُـمَّ من بابِ الاحتياطِ وإبعـاداً لكُـلِّ شُبهةٍ ، كـان الأزهريُّونَ (يَختتِمونَ ما يتحدَّثونَ عَنْهُ أو يُفتُونَ بهِ بقولِهِم : «واللهُ أعلمُ» . واحتياطُهُم في الرأيِ والـحـديـثِ عـنِ الإسلامِ إلى هذا الحدِّ ، كانَ سبباً رئيسيّاً [رئيساً] في تمسُّكِهِم بأقوالِ السّابقينَ في كُتُبِهِم ، وفيما أُثِرَ عنهُم مِنْ أقوالٍ . كما جرَّهُم هذا الأمْرُ للتّقليدِ والحِرصِ عليهِ ، إلى درجةٍ أنَّهُم أصبحُوا يُناوئونَ «الاجتهادَ» ، والاستقلالَ في الرأيِ عنِ السّابقينَ قبلَهُم ، فيما تركوا مِنْ آراءَ فقهيّةٍ .

وتَبَعاً لهذا التّقليدِ : دارَتْ دراساتُهُم وبحوثُهُم وفتاواهُم في الكتابِ ، الّذي أَلِفوا الرُّجوعَ إليهِ والنَّقلَ عَنْهُ . حيثُ أصبحَ الكتابُ المؤلَّفُ في المادَّةِ المُعيَّنَةِ لَدَيْهِمْ عمادَ التَّعليمِ ، ومصدرَ الفتوى والرأيِ ، حتّى وإنِ استُبدِلَ بآخرَ في مادّتِهِ ، فإمّا : بكتابٍ مُوجَزٍ أو مُطَوَّلٍ على نَمَطِهِ وفي موضوعِهِ .

لذلكَ لَمْ تنلِ الإصلاحاتُ العديدةُ في بادئِ الأمْرِ - الّتي أُدخِلَتْ على برامجِ التّعليمِ في الأزهرِ - بُغيَتَها أوْ مُرادَها ، مِنَ الكتابِ التّقليديِّ ، لا في وصـفـهِ ، ولا في قيمتِهِ ، ولا في الاحتفاظِ بهِ . أمّا الدِّراسةُ في الأزهَرِ الشّريفِ وإنْ قامَتْ أوّلَ عهدِهِ : بالتّعليمِ الدِّينيِّ على أساسِ كتابٍ ، يتلوهُ كتابٌ آخرُ في مادَّتِهِ ، سَبَقَهُ ، ويتلوهُ كتابٌ ثالثٌ ... أو رابعٌ ... أو خامسٌ في نفسِ المادّةِ ، بَعدَهُ . فإنَّ التَّغييرَ بسببِ التَّقليدِ - الَّذي كانَ يطرأُ في عهدِ الإصلاحِ لمناهجِ التّعليمِ فيهِ ، في فَتْرَةٍ مِنَ الفَتَراتِ - كانَ لا ينالُ مِنَ الكتابِ ، ولا مِنْ ترتيبِهِ في السَّبْقِ ، أوْ في البَعْدِيَّةِ ، وإنّما كان يتناولُ الزَّمَنَ وتقسيمَهُ إلى مراحلَ : ابتدائيّةٍ ، ثانويّةٍ ، وعاليةٍ ، تُدَرَّسُ فيها الكُتُبُ التي عُهِدَتْ دراستُها قبلَ الإصلاحِ ، وعلى نَفسِ النَّمَطِ الّذي كانَ لَها أوّلاً ، قبلَ المراحلِ الدِّراسيّةِ التي قُسِّمَتْ حَسَبَ الزَّمَنِ .

على أيَّةِ حالٍ وإنِ التَزَمَ عُلماءُ الأزهرِ في أمسِهِ ، رأيَ الكُتُبِ التّقليديّةِ ، في التَّعبيرِ عنِ مبادئِ الإسلامِ ، وحُكمِهِ في شئونِ المسلمينَ ، فإنَّهُم لم يَقعوا ـ عنْ طريقِ استقلالِهِم ، في تَمويلِ التَّعليمِ والنَّشاطِ الدّينيِّ داخلِهِ وخارجِهِ ـ تحتَ تأثيرِ اتجاهٍ سياسيٍّ محليٍّ أو عالميٍّ . [إنَّما] كانوا بالأحرى أحراراً ، فيما يقولونَهُ باسمِ الإسلامِ ، في تكييفِ الأحداثِ ، وفي الحُكمِ عليها ، وفي تصرُّفاتِ المُسلمينَ : حُكّاماً ومحكومينَ على السَّواءِ)[1].

لا ريبَ فقَدْ ساعدَ استقلالُ الأزهرِ ، واستقلالُ عُلمائِهِ ـ فيما أبدَوْهُ مِنْ آراءَ شرعيَّةٍ ، تَمَسُّ مُباشَرَةً حياةَ الأُمَّةِ الإسلاميّةِ ، في عُصورِها المُختلفَةِ ـ على وقايَةِ الأُمَّةِ عَصِيَّةً مَنِيْعَةً مِنَ الضَّياعِ ، أو الذَّوَبانِ في غيرِها مِنَ الأُمَمِ ، أوِ التَّردِّي في هَوانِ المَذَلَّةِ والضَّيمِ ، تحتَ الظُّلمِ والظَّلامِ ، كما أرادَ لها نَفرٌ غيرُ قليلٍ مِنْ حُكّامِها ، في أزمنَةٍ ماضيَةٍ مُختلفةٍ . إذًا نَجَحَ الأزهرُ في أمسِهِ على أَنْ تَبقَى الهويَّةُ الثَّقافيَّةُ العربيَّةُ الإسلاميَّةُ ، بيضاءَ ناصعةً مُشرقَةً .

لا سيَّما أنَّ السُّكوتَ عنِ المُنكَراتِ أصلاً ، سببٌ في الهلاكِ والبلاءِ العامِّ ، إذْ يترتَّبُ عليهِ الكثيرُ مِنَ الفُسوقِ والفُجورِ ؛ لِهذا يستنهضُ الرسولُ ﷺ الهِمَمَ الإيمانيَّةَ ، لاستنكارِ المُنكرِ ، بالضَّربِ بيدٍ مِنْ حديدٍ ، على أيدي مَنْ يعتدي على حُرُماتِ اللهِ تعالى ، ويتجاوزُ معالِمَ حُدودِ الشَّارعِ الإسلاميِّ . والدَّليلُ علَى ذلكَ ما ورَدَ في الحديثِ الشَّريفِ التَّالي :

عن أُمِّ المؤمنينَ أُمِّ الحَكَمْ زينبَ بنتِ جَحْشٍ رضيَ اللهُ عَنها ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ ، دخلَ عليها فَزِعاً يقولُ : «لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ ، فُتحَ

---

(١) محمد البهي : غيوم تحجب الإسلام ، ص٩٦-٩٨ .

الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يأْجُوجَ وَمأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وَحَلَّقَ بأصْبُعَيْهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أنهلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قالَ : «نَعَمْ إذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»[1].

كَذلكَ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أيضاً في هذا الصَّدَدِ ، وهوَ سُبحانَهُ يهتِفُ بالمؤمنينَ : بأنْ يستجيبُوا للهِ وللرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، مَعَ التَّرغيبِ في الاستجابةِ ، والتَّرهيبِ مِنَ الإعْراضِ . ثمَّ يُذكِّرُهُم بِنعْمَتِهِ سبحانَهُ وتعالى ، حينَ استجابوا لله عزَّ وجلَّ وللرسولِ ﷺ .

فَها هُوَ يُحَذِّرُ عبادَهُ المؤمنينَ ، مِنَ التَّراخي في تغييرِ المُنكَرِ ؛ لأنَّ الفتنةَ قد تكونُ خاصةً ، يقومُ بها آحادُ النّاسِ ، لكنَّ العذابَ يشمَلُ الجميعَ ، إذا لم يقفُوا في وجهِ المُفسدينَ الظّالمينَ وردْعِهِم ؛ لأنَّ الإسلامَ منهجٌ تكافُليٌّ إيجابيٌّ . فلا يسمحُ أنْ يقعُدَ القاعدُونَ على المُنكَرِ والفسادِ والظُّلمِ . ثمَّ يرونَهُ كيفَ يشيعُ وينتشِرُ ، وهُم ساكتونَ بِحُجَّةِ أنَّهُم في ذواتِهم ، صالحُونَ طَيِّبُونَ .

فاللهُ سُبحانَهُ وتعالى يَحُثُّ المؤمنينَ أنْ يستجيبوا طواعيَةً لأمرِهِ ، ونَهجِ رسولِهِ ﷺ ، لكي ينالُوا الحياةَ الكريمةَ في الدُّنيا ، والأجرَ العظيمَ في الآخرَةِ ، قالَ اللهُ تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(الأنفال: ٢٤-٢٦).

---

(١) عز الدين بليق : منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين ، رقم الحديث «٨٧٥» ، ص٤١٢ .

يدعو اللّهُ تعالى المؤمنينَ للاستجابةِ لأمرِ دينِهِ ، مَعَ أنَّـهُ سبحانَهُ قادرٌ على أنْ يقهَرَهم على الهُدى قَهراً ، لكنَّهُ يدعوهم عنْ إرادةٍ (تعلو بها [إنسانيَّتُهم] وترتفعُ إلى مُستوى الأمانةِ ، التي أناطَها اللهُ تعالى بهذا الخَلْقِ المُسمَّى بالإنسان . . . أمانةِ الهدايةِ المُختارَةِ ، وأمانةِ الخِلافَةِ الواعيَةِ ، وأمانةِ الإرادةِ المُتَصرِّفَةِ عنْ قَصْدٍ ومعرفةٍ . [يدعوهم سُبحانَهُ وقُلوبُهم] بينَ يديْهِ ، [وهُم] بعدَ ذلكَ محشُورونَ إليهِ ، وهُوَ سُبحانَهُ [يدْعوهم ليستَجيبوا] استجابةَ الحُرِّ المأجورِ ، لا استجابةَ العبدِ المقهورِ .... [ثُمَّ يُحذِّرُهُم اللهُ تعالى عاقِبَةَ] القُعودِ عنِ الجهادِ ، وعنْ تلبيَةِ دعوةِ الحياةِ إليهِ ، [ويُذكِّرُهم بأنَّ] الجماعةَ التي تسمحُ لفريقٍ منها بالظُّلمِ ، في صُورةٍ مِنْ صُورِه [المتَعدِّدَةِ] ـ وأظلَمُ الظُّلمِ نَبذُ شريعةِ اللهِ ومنهجِهِ للحياةِ ـ ولا تَقِفُ في وجهِ الظّالمينَ ، ولا تأخُذُ الطَّريقَ على المُفسدينَ . . . [إنّما هيَ] جماعةٌ تستحِقُّ أنْ تؤخَذَ بجريرةِ الظّالمينَ المُفسدينَ . . . ولمّا كانت مُقاومَةُ الظُّلمِ ، تُكلِّفُ النّاسَ التّكاليفَ في الأنفُسِ والأموالِ ؛ فقدْ عادَ القُرآنُ يُذكِّرُ العُصْبَةَ المُسلمَةَ ـ الّتي كانت تُخاطَبُ بهذا القُرآنِ أوّلَ مرَّةٍ ـ بما كانَ مِنْ ضَعفِها وقِلّةِ عددِها ، وبما كانَ مِنَ الأذى الّذي ينالُها ، والخوفِ الّذي يُظَلِّلُها . . . وكيفَ آواها اللهُ تعالى بدينِهِ هذا ، وأعزَّها ورزَقَها رِزقاً طيِّباً . . . فلا تَقعُدُ إذن عن الحياةِ التي يدعوها إليها رسولُ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ولا عن تكاليفِ هذهِ الحياةِ ، الّتي أعزَّها بها اللهُ تعالى ، وأعطاها وحَماها . . . [لكي يؤهِّلَها لِشُكرِهِ فتؤجرَ على شُكرِها] لفضْلِهِ)[1].

اقتبسَ الأزهرُ الشّريفُ في أمسِهِ معانيَ وروحَ هذه الآياتِ الكريماتِ ، فكانَتْ لِعُلمائِهِ المواقفُ الفريدةُ ، التي قاومتِ الظُّلمَ في الدّاخلِ ، كما كانت لَهُم أُخرى ضدَّ الاستعمارِ الأجنبيِّ مِنَ الخارجِ ، مِمَّا يجعلُ كلَّ مُسلمٍ ، يتذكَّرُ

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، مج٣ ، ٨٣٥/٧ ، ٨٣٦ .

استقلالَ الأزهرِ وفاعليّتَهُ باسمِ الإسلامِ ، وعلى أُسُسٍ مِنْ مبادئِهِ . ثُمَّ يستخلِصُ قيمتَهُ في دعمِ كيانِ الأُمّةِ الإسلاميّةِ جمعاءَ ، والحِفاظِ على قيمَةِ العدلِ فيها ، في الوقتِ الّذي صانَ فيهِ تُراثَ الأُمّةِ في ثقافتِها ، وروحيَّتِها ، ولُغَتِها العربيّةِ . (كانَ للأزهرِ ورجالِهِ المواقفُ المشهورةُ[1] ، في وجهِ الغُزاةِ الفرنسيّينَ على عهدِ «نابليونَ بونابرت» . يقودُ الأزهرُ الشّعبَ لمُقاوَمَةِ الغزوِ الفرنسيِّ ، ثُمَّ ضدَّ الاحتلالِ الإنجليزيِّ أيضاً في فتراتِهِ المُختلفَةِ . كما كانتْ لبعضِ الشّخصيّاتِ الأزهريّةِ في أمسِهِ ، على عهدِ استقلالِهِ ، آراءُ حَفِظَتْ كيانَ الأُمّةِ المِصريّةِ ، مِنْ أنْ تعصِفَ بها عواصِفُ الظُّلمِ والاستبدادِ . وقد أعدمَ «نابليونُ» ثلاثةَ عَشَرَ عالِماً ، مِنْ عُلماءِ الأزهرِ الشّريفِ ، [مُتَذَرّعاً بأنّهم] حرّضُوا النّاسَ على الثّورةِ ، وقادُوا المُظاهراتِ احتجاجاً على الغزوِ الفرنسيِّ .

لم تكُنِ المواقِفُ السابقةُ [لَـدَى الأزْهَرِيّينَ] مُنبعثَةً مِـنْ غِلْظَةٍ فـي الطّبْعِ ، أو طبيعةٍ عصبيَّةٍ مُتَشدِّدَةٍ ، وإنّما كانَ انبعاثُها مِنْ مجموعةٍ مِنَ الأخلاقِ والمُثُلِ ، التزمَ بها هؤلاءِ العُلماءُ ، كجُزءٍ مِنْ إيمانِهِم بالإسلامِ وتعاليمِهِ ، ووفاءً لِما أمّلَتْهُ العامّةُ فيهِم ، فكانُوا عندَ حُسْنِ ظَنِّهِم)[2] .

---

(١) بعض رجال الأزهر ومواقفهم المشهورة : ١ : الشيخ «محمد بن سالم الحفني الشافعي» ، تولّى مشيخة الأزهر عام «١٧٥٧»م ، كان عضواً في ديوان الحكومة ، وكان لا يتمُّ أمرٌ من أمور الدّولة إلاّ باطّلاعهِ ومشورتهِ . ٢ : الشيخ «عبد الله الشرقاوي» تولّى مشيخة الأزهر ، ما بين «١٢٠٨-١٢٢٧هـ» حيث التفَّ حوله الفلاحون من أهل «بلبيس» ، فأنقذهم من ظلم الوالي التركي «خورشيد باشا» عام «١٨٠٥م» . وفي ثورة عام «١٩١٩»م ، عندما أعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، أعلن علماءُ الأزهر الثورة ، وكانوا قادةً فيها . واغتال الطالب الأزهريُّ النشأةِ ، السُوريُّ الأصل ، وهو «سليمان الحلبي» ، القائدَ الفرنسي «كليبر» عام «١٨٠٠م» ويعدم الحلبيُّ معَ أربعةٍ من شيوخِ الأزهرِ وطُلاّبِهِ . انظر . محمود محمد جمال الدين : من تاريخ مصر المعاصر ، ص٢٤ .

(٢) محمد البهي : غيوم تحجب الإسلام ، ص٩٨-١٠٢ .

بقيَ الأزهرُ مُستَقِلاً في إدارتِهِ ومنهجِهِ وتمويلِهِ ، يجهرُ عُلماؤُه بالحقِّ . ثُمَّ يَقودونَ الرأيَ العامَّ في مصرَ ، حتى بدايةِ القرنِ العشرين ، وبالتّحديد إلى عام «١٨٨٢م» ، حينما احتلّهاَ الإنجليزُ ، الّذينَ لم ينسَوا دورَ الأزهرِ في مُقاومَةِ الغُزاةِ ، عبرَ تاريخِ الأزهرِ المجيدِ . لذلكَ ركّزتِ السياسةُ البريطانيّةُ على التّعليمِ في مصرَ ؛ رغبةً في إبعادِ الأزهرِ وعلمائِهِ ، عن الرِّيادةِ والقيادةِ . (لذلكَ تناولتِ المؤامرةُ الإنجليزيّةُ أمرينِ هامّينِ ، هُما :

أولاً : ازدواجُ التّعليمِ في مِصرَ ، بعدَ فصلِ التّعليمِ في الأزهرِ ، عن التعليمِ فـي الدّولةِ ، [فأصبحَ هُـنـاكَ التعليمُ الدِّينيُّ] فـي الأزهـرِ ، وآخـرُ غيرُ دينـي أو عَلْمانيُّ في غيرِ الأزهرِ ، مِنَ المدارسِ في مراحِلِها المُختلفةِ ، الّتي تُنشئُها وزارةُ المعارفِ العموميّةِ إذْ ذاكَ .

ثانياً : إلغاءُ استقلالِ الأزهرِ في تمويلِهِ ، وإلحاقِهِ بجهةٍ حُكوميّةٍ . . . كذلكَ توجيهُ رجالِهِ ، [إلى غَيرِ ما لا ينبغي] - بقدْرِ ما يُمكِنُ - فيما يُعلنونَهُ مِنْ آراءَ وفتاوى باسمِ الإسلامِ .

تَبعاً لهذهِ السياسةِ التّعليميّةِ في عهدِ الاحتلالِ البريطانيِّ في مِصرَ ، انقسمَ المجتمعُ المِصريُّ في التّوجيهِ إلى ثلاثِ طوائفَ ، [هيَ] :

الطائفةُ الأولى : صاحبةُ التّعليمِ في الأزهرِ .

الطّائفةُ الثّانيةُ : الطّائفةُ المُنافسةُ للأزهرِ في الثّقافةِ الإسلاميّةِ ، وهيَ الّتي تتخرّجُ في مدارسِ القضاءِ الشّرعيِّ ، ودارِ العلومِ ، والمُعلّمينَ الأوليّةِ .

الطّائِفَةُ الثّالِثَةُ : وهيَ صاحبةُ التّعليمِ اللادينيِّ والعَلْمانيِّ أو المدنيِّ ، وهيَ الّتي تتخرّجُ في مدارسِ وزارةِ المعارفِ)[1]. أخذَتِ الانفصاليّةُ بينَ هذهِ الطوائفِ الثلاثِ في المُجتمعِ المصريِّ ، تقوم بدورِها في التّنازُعِ والخِصامِ ، وتبادُلِ الشتائمِ والتّنابُذِ والسُّخريَةِ . بينما الأزهريّونَ : ينظرونَ إلى مَنْ سواهُم ، من

---

(١) محمد البهي : غيوم تحجب الإسلام ، ص ١٠٣-١٠٥ .

الطائفتينِ الأُخريينِ ، بعينِ عدَمِ الرِّضا ، فإذا بِهاتينِ الطّائفتينِ معاً ، تنظُرانِ أيضاً إلى رجالِ الأزهرِ ، على أنّهُم غيرُ صالحينَ للحياةِ المُعاصِرَةِ ، وأنّهم يعيشونَ بتفكيرِهِم الزَّمَنَ الماضي ، فَهُم بذلكَ «رجْعيونَ» . هكَذا استطاعَ الاحتلالُ الإنجليزيُّ ، أنْ ينقُلَ جُزءاً مِنَ النّشاطِ الفكريِّ للمصريينَ ، مِنْ مُعارضَتِهِ هُوَ كَدَخيلٍ أوْ مُحتَلٍّ أجْنبيٍّ كَريهٍ ، إلى مُعارضَةِ كُلِّ طائفةٍ للأُخرى ومُخاصمتِها . ويؤكّدُ البَحْثُ على أنَّ التّفرقةَ في التّوجيهِ والثّقافةِ ، هيَ أخطرُ أنواعِ التّفرقَةِ .

ثم أخذَ استقلالُ الأزهرِ يضمحِلُّ رويداً رويداً ، نتيجةً للخُصوماتِ الفِكْريَّةِ الدّاخيلَةِ ، لاسيما بعد التَّبعيَّةِ الماليّةِ ، التي أحاطت بالأزهرِ ، مِنْ كُلِّ حَدْبٍ وَصَوْبٍ ، فَقَيَّدَتْ حُريَّتَهُ ، ثُمَّ حَوَّلَتْ تَوجيهَهُ السِّياسيَّ للإدارةِ الحكوميّةِ (كما ابتدأَ الأزهرُ يُصفّي أصحابَ الرأيِ فيهِ ، ويُخرِّجُ جيلاً جديداً ، تتبعُهُ أجيالٌ أُخرى [مُوغِلَةٌ] في الإمعانِ بالتّبعيَّةِ السِّياسيَّةِ .

وكانت ثورةُ «١٩١٩م» الوطنيّةِ ، تكادُ تكونُ آخرُ المواقفِ الأزهريَّةِ ، الّتي تميَّزَ بها عهدُ استقلالِ الأزهرِ ، والتي وقفَ فيها مواقفَهُ المشهورةَ ، ضدَّ الاحتلال [الإنجليزيِّ] والحمايةِ البريطانيّةِ ، ثُمَّ ضدَّ الغزوِ الأجنبيِّ أوِ الظُّلمِ على العُمومِ . كما يكادُ يكونُ الشيخُ «عبدُ المجيدِ سليمُ» ، هُوَ آخِرُ شُيوخِ الأزهرِ ، الّذي أثّرَ فيهِم وفي آرائِهِم ، عهدُ استقلالِ الأزهرِ إلى درجةٍ كبيرةٍ)[1] .

ابتدأتْ سياسةُ الاحتلالِ البريطانيِّ ـ بإلحاقِ الأزهرِ في تمويلِهِ بالحكومةِ المِصريّةِ ، بدلاً مِنْ أوقافِ الخيراتِ ـ تنعكِسُ سلباً على التّوجيهِ في الأزهرِ ، كما أخذتْ تُحدِّدُ للأزهريينَ الغايةَ مِنَ الأزهرِ ، وهيَ ألاّ يعدو عنْ كونهِ مؤسَّسةً للتّعليمِ على نَمَطٍ مُعيَّنٍ ، ولثقافةٍ مُحدَّدةٍ ، تُساعِدُ المُتخرِّجينَ للحُصولِ على درجاتٍ ماليّةٍ ، في بعضِ وظائفِ الحكومةِ المحليّةِ ، فَحَسْبُ .

---

(١) محمد البهي : غيوم تحجب الإسلام ، ص١٠٧ .

أثارت هذهِ القوانينُ الجائرةُ حفيظةَ الأزهريينَ، وتعالَتِ الصَّيحاتُ المُتكَرِرةُ، الّتي كانَ يُصدرُها عُلماءُ الأزهرِ وطُلّابُهُ، مِنْ وقتٍ لآخرَ، مُضربينَ عنِ الدِّراسةِ مرّةً، ومُهدِّدينَ بالإضرابِ مرّاتٍ، أملاً في مُساواتِهِم في الوظائفِ الحكوميّةِ - بزُملائِهم الّذينَ يتخرَّجُونَ، في دار العُلومِ، أو في القضاءِ الشّرعيِّ، أو في المُعلمينَ الأوليّةِ - ورغبةً في تَعديلِ مُرتَّباتِهِم الّتي يتقاضُونها، نَحْوَ الأَفضل.

فَتَحوَّلتْ رسالةُ الأزهريينَ إلى تحقيقِ المُساواةِ في الوظيفةِ والمعاشِ، بعدَ أنْ كانت على عهدِ استقلالِ الأزهرِ، هيَ رسالةُ الإسلامِ: تعليماً، ودعوةً وفتوًى، ورأياً، وموقفاً إزاءَ الأحداثِ والمشاكلِ الهامَّةِ، التي تقَعُ بينَ المسلمينَ.

هكَذا أصبحتْ مُشكلاتُ الأزهرِ في نَظَرِ الحكومةِ المِصريّةِ حين ذاكَ، هيَ: المساواةُ في الوظيفةِ والدَّرَجةِ الماليَّةِ، ليسَ إلاَّ.

اغتنمتِ الحكومةُ الملكيّةُ المِصْريَّة فُرصةَ تَبعيَّةِ الأزهرِ، وابتعادهِ عن رسالتِهِ الأساسيّةِ، أيامَ استقلالِهِ، فأصدَرَتْ قانونَيْنِ[1] تحتَ شعارِ «إصلاحِ الأزهرِ»، (وكِلا القانونَيْنِ صدرا بإيحاءٍ مِن «السَّراي»[2].

---

(١) أ: قانون إصلاح الأزهر سنة «١٩٢٥م»، أصدرَهُ «إسماعيل صدقي باشا»، وقد كان وزيراً للداخليّةِ، في حكومة «إنقاذ ما يمكنُ إنقاذُهُ». ب: قانون سنة «١٩٣٦»م أصدرتهُ حكومةُ «توفيق نسيم باشا، في عهد الملك أحمد فؤاد الأول، انظر، قسطنطين تيودوري: المنجد في اللغة والأعلام، ص ٤١٨. وانظر، محمد البهي: غيوم تحجب الإسلام، ص١٠٨.

(٢) جمعُ السَّراةِ: سَرَواتٌ، وسَرواتُ القوم: أشرافُهُم، وسَراةُ كُلِّ شيءٍ: أعلاهُ، والسراي: اسمٌ أُطلِق على قصرِ الحكومة في مصرَ، أيام «الخديوي توفيق» والملك «أحمد فؤاد الأول»، ولا يزالُ يُطلقُ على قصر الحكومة أو مبنى رئاسة الجمهوريّةِ في لبنان. وخيرُ «السرايا»: أربعمائةِ رَجُلٍ: ويكونون خُلاصةَ العسكرِ وخيارَهُم، السَّريُّ: النَّفيس. انظر، محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، ٦/٢٥٣، ٢٥٤. وانظر، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، ص٢٩٧.

استهدفَ إصدارُهُما تقريبَ الأزهرِ ، إلى سياسةِ الملكِ «أحمد فؤاد الأول ، ضدَّ حزبِ «الوفدِ» على الخُصوصِ ، وضِدَّ شعبيَّةِ هذا الحزبِ ، الَّتي كانَ يتمتَّعُ بها في مِصْرَ إذْ ذاكَ ، وعالجا تنظيمَ مراحلِ الدِّراسةِ في الأزهرِ ، ومناهجَ التَّعليمِ ، بحيثُ يكونُ للمُتخرِّجينَ فيهِ ، صلاحيَّةُ الالتحاقِ بوظائفِ التَّعليمِ ، في المؤسَّساتِ الحكوميَّةِ التَّعليميَّةِ ، ثُمَّ إنشاءُ كُليّاتٍ ثلاثٍ في الأزهرِ ، [هيَ] : أصولُ الدِّينِ ، والشَّريعةُ ، واللُّغةُ العربيَّةُ)[1].

أثبتتِ الأيامُ بالتَّجربةِ النَّاصعةِ ، أنَّ قانونيِّ إصلاحِ الأزهرِ المزعُومَيْنِ ، كانا طَمأنةً لخواطرِ الأزهريِّيْنَ الغاضبينَ منهُم والمُتظاهرينَ ، وليسَ تجديداً حقيقيّاً ، ولا إصلاحاً أساسيّاً ، لتحسينِ المُدْخَلاتِ أوِ المُخرجاتِ التَّعليميّة ، في الأزهرِ الشَّريفِ . إنّما كانا يهدفانِ إلى : إغراءِ الأزهريِّيْنَ ، عُلماءَ وطُلّاباً ، إغراءً حزبيّاً وسياسيّاً ، موافقاً لسياسةِ القصرِ الملكيِّ في مِصرَ ، الَّذي أخذَ يتقرَّبُ مِنَ الأزهرِ ، بعد استقلالِ مِصْرَ عامَ «١٩٢٢م» ، لكي يستغلَّ سُمعتَهُ العالميَّةَ ، ومواقفَهُ التّاريخيَّةَ السابقةَ . إنَّ أُفولَ شمسِ استقلالِ الأزهرِ وتبعيَّتَهُ ، أخَذَتْ تتضحُ للعَيان تماماً ، (بانتهاءِ النصفِ الأوّلِ مِنَ القَرْنِ العشرين ، [حيثُ] أصبحَ الأزهرُ معهداً للتَّخرُّجِ [مِنْ أجلِ طَلَبِ الوظيفةِ] ، وليسَ مركزاً للفتوى والرأي ، وليسَ كذلكَ مَرْجِعاً ترجِعُ إليهِ الأمَّةُ الإسلاميَّةُ في مِصْرَ - أو في غيرِها - في تحديدِ الموقفِ الإسلاميِّ مِنَ الأحداثِ والتَّغيُّراتِ ، مُجرَّداً عَنْ أيَّةِ تَبَعيَّةٍ سياسيَّةٍ ، لأيَّةِ جِهةٍ ، أو هيئةٍ سياسيَّةٍ داخليَّةٍ أو خارجيَّةٍ . وأزهرُ النّصفِ الثّاني مِنَ القرنِ العشرين ، يختلِفُ عنْ أزهرِ النِّصفِ الأوّلِ [مِنْهُ]. فالأزهرُ المُعاصِرُ ، يدورُ برأيِهِ وموقِفِهِ ، في مجالِ السِّياسةِ التي تُرسَمُ لَهُ ، ويُحاولُ أنْ يجذِبَ إلى رأيِهِ وموقفِهِ : الإسلامَ جذباً . وقد يَشُدُّهُ إليهِ شَدّاً عنيفاً ، إرضاءً للحاكمِ السِّياسيِّ ... حتّى أصبحتِ الاشتراكيَّةُ العلميَّةُ - وهيَ اشتراكيَّةُ ماركس ،

---

(١) محمد البهي : غيوم تحجب الإسلام ، ص١٠٨ ، ١٠٩ .

وبلشفيَّةُ لينين ، تجدُ لها تقديراً في بُحوثِ عُلماءِ الأزهرِ ، يتقرَّبونَ بها إلى الحاكمِ الاشتراكيِّ ، ويُضفونَ عليها سِمَةً مِنَ الإسلامِ ، والإسلامُ في جوهرِهِ بعيدٌ عنها كُلَّ البُعدِ وحتّى أصبحتْ « موسكو » يَحُجُّ إليها الإمامُ الأكبرُ ، شيخُ الأزهر[1]، كما يَحُجُّ إلى مكَّةَ مَهْبِطِ الوحيِ والرِّسالةِ ، وربَّما قبلَ أنْ يَحُجَّ إلى هذا البلدِ الأمينِ ، وأخطرُ مرحلَةٍ يمرُّ بها الإسلامُ الآنَ ، هيَ تلكَ المرحلةُ الحاضرةُ ، الَّتي يشتري فيها [بعضُ] عُلماءِ الإسلامِ ، بآياتِ اللهِ ثمناً قليلاً ، هيَ تلكَ المرحلَةُ ، الَّتي يَجْرأُ فيه مَنْ ينتسِبُ إلى دينِ اللهِ ، على تطويعِ كتابِ اللهِ تعالى ، لِهوى الحاكمِ ، بينما يَضْعُفُ ويستخزي فلا يقولُ كلمةَ الحقِّ في وجْهِهِ)[2]. ثُمَّ لا يقلُّ خطَرُ العُلماءِ في هذهِ المرحلةِ ، مِنَ الحيلولَةِ بينَ الشّبابِ المُسلمِ المُعاصِرِ ، والرؤيةِ الواضحَةِ للإسلامِ ، عن أولئكَ الأعداءِ الَّذينَ يُثيرونَ الاتهاماتِ المسمومةَ ، والشُّبَهَ الخبيثةَ لدينِ اللهِ تعالَى ، ولِرَسُولِهِ ﷺ ، سواءٌ أكانتْ كتاباتٌ أو رُسوماتٌ ، أو نحوَ هذا؟! .

فلا ينبغي أصلاً أن يغيبَ دورُ العُلماءِ ، عن قيادةِ الفكرِ العربيِّ الإسلاميِّ ، إلى الحقِّ والخيرِ ، فكيفَ بِمَنْ يُمارِسُ التَّحريفَ والتَّخريفَ ، في دينِ اللهِ سبحانَهُ وتعالى ، ليرضى عنهُ نظامٌ ما ، في سُخطِ خالقِهِ عزَّ وجلَّ؟! .

لقد بيَّنَ القُرآنُ الكريمُ أنَّ هذا الأمرَ المعيبَ ، قد كانَ عليهِ بنو إسرائيلَ مِنْ قبلُ ، إذِ انقسموا حيالَ التَّوراةِ إلى فريقينِ : (فريقٌ أُميٌّ جاهلٌ : لا يقرؤونَ ولا يكتبونَ ، ولا يعرِفونَ مِنْ كِتابِهِم إلاَّ كَذِباً أو تخريصاً ، وأوهاماً وظُنوناً ،

---

(١) هو الشيخ «محمود شلتوت» ١٨٩٢-١٩٦٣م»، تولّى مشيخةِ الأزهرِ عام ١٩٥٨م ، أيام حكم الرئيس «جمال عبد النّاصر» . سعى إلى تذليلِ الخلافات بينَ المذاهب الإسلاميَّةِ المُختلفةِ ، لَهُ عِدَّةُ مؤلَّفات ، أبرزُها «المقارنةُ بينَ المذاهبِ» . وأيضاً شيخ الأزهر «عبد الرحمن تاج» وقد أُخِذَ عليهِ ، تهنئتُهُ للقادةِ السوفييت ، في مناسباتٍ عديدةٍ ، انظر . محمد البهي : غيوم تحجب الإسلام ، ص٦٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص١١٠ .

وإلاَّ أمانيٌّ في النَّجاةِ مِنَ العذابِ ، وفريقٌ يتلونَ [كتابَهم] مُجرَّدَ التِّلاوةِ مِنْ غيرِ تفهُّمٍ وتدبُّرٍ ، [فيستغلُّونَ الجهلَ والأُميَّةَ ثُمَّ يُزوِّرونَ] على كتابِ اللهِ تعالى ، [ويُحرِّفونَ] الكَلِمَ عَنْ مواضعهِ بالتأويلاتِ المُغرضَةِ ، يكتُمونَ مِنْهُ ما يشاءونَ ، ويُبدونَ مِنْهُ ما يشاءونَ . [فَيكتبون] كلاماً مِنْ عِنْدِ [أنفُسِهم] يُذيعونَهُ بينَ النَّاسِ باسمِ أنَّهُ مِنْ كتابِ اللهِ ، يعملونَ كلَّ هذا ، مِنْ أجلِ عَرَضٍ زائلٍ مِنَ الدُّنيا : كالمالِ أو الرِّياسةِ والمناصبِ)[1]. يصِفُ اللهُ تعالى المواقفَ هذهِ ، على سبيلِ التَّحذيرِ ، إلاَّ أنَّها صورٌ تتكرَّرُ لا سيما عندَما تغيبُ الرَّقابةُ الإيمانيَّةُ ، وتنقطعُ الصِّلَةُ باللهِ تعالى ، فيُكذَبُ على وحيِهِ وتنزيلِهِ ، فيقولُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٧٨-٨٠).

إنَّ أمثالَ هؤلاءِ الَّذينَ يفترونَ الكَذِبَ على اللهِ تعالى ، ولا يتحرَّجونَ مِنْ تحريفِ نُصوصِ كتابِ ربِّهم . فإنَّهُم لنْ يستجيبوا للحقِّ ، ولم يستقيموا على الهُدى ، لذا فالهلاكُ والويلُ لَهُم - مِمَّا يكسبونَ بهذا التَّزويرِ والاختلاقِ - يومَ القيامةِ ، حيثُ لا تنفعُ أكاذيبُ المُحتالينَ مِنَ العُلماءِ ، ولا أمانيُّ الأُمِّيِّينَ الجاهلينَ المُنحرفينَ عنِ العقيدةِ الصَّحيحةِ .

وينعى رسولُ اللهِ ﷺ - في الحديثِ الشَّريفِ - العُلماءَ الَّذينَ يقولونَ خِلافَ ما يفعلونَ ، مُبيِّناً شِدَّةَ عُقوبَتِهم في نارِ جهنَّمَ . عنْ أبي زَيدٍ أُسامَةَ بنِ زيدٍ

---

(١) محمد بن جرير الطبري ، المتوفى سنة «٣١٠هـ» ، المختصر في تفسير القرآن «مختصر من تفسير الإمام الطَّبري» ، عُنيَ بتنقيحهِ وتحريرهِ ، عدنان زرزور ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، ص ١٠ .

ابنِ حارثَةَ ، رضيَ اللهُ عنهما ، قالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ ، يقولُ : « يُؤْتَى بالرَّجلِ يومَ القيامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتابُ بَطْنِهِ[1]، فَيَدُورُ بِهَا كَما يدُورُ الحِمَارُ بالرَّحى ، فَيَجْتَمِعُ إليهِ أهْلُ النَّارِ فيَقُولُونَ : يا فُلانُ ما لَكَ؟ أَلَمْ تَكُ تأمُرُ بالمَعْرُوفِ وتَنْهَى عَنِ المنْكَرِ؟ فيَقُولُ : بَلَى ، كُنْتُ آمُرُ بالمَعْرُوفِ ولاَ آتِيهِ ، وأَنْهَى عَنِ المُنْكَرِ وآتِيهِ »[2].

سببُ هذا التَّشنيعِ في العذابِ ، يعودُ إلى الجُرأةِ في الاعتداءِ على سُلطانِ اللهِ تعالى ، حيثُ إنَّهُ صدرَ عنْ عِلمٍ ، معَ التَّرصُّدِ وسَبْقِ الإصرارِ ، فالجزاءُ هُنا منْ جنسِ العملِ . ونسيَ هؤلاءِ النَّفرُ مِنَ العُلماءِ أو تناسَوا ، أنَّ الجَهرَ بكلمةِ الحقِّ أمامَ السُّلطانِ الجائرِ مِنْ أعظمِ أنواعِ الجهادِ ، عندَ اللهِ تعالى ، كما وردَ في الحديثِ الشَّريفِ .

عن أبي عبدِ اللهِ طارقِ بنِ شهابِ البَجَليِّ الأَحْمَسِيِّ رضيَ اللهُ عَنْهُ ، أنَّ رجُلاً سأَلَ النَّبيَّ ﷺ ، وقَدْ وَضَعَ رِجْلَهُ في الغَرْزِ[3] : أيُّ الجِهادِ أَفْضَلُ؟ قالَ : « كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جائِرٍ »[4].

---

(١) فتندلقُ أقتابُ بطنهِ : خرجَتْ أمعاؤُهُ ، الاندلاق : خروجُ الشيءِ من مكانهِ . القِتبُ والقَتَبُ : المِعى . انظر ، محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب ، مج٤ ، ١١ ، ص٣٩٠ .

(٢) يحيى بن شرف النّووي الدمشقي « ٦٣١-٦٧٦هـ »: رياض الصالحين ، حقّقَ نصوصه وخرَّجَ أحاديثه وعلّق عليهِ ، شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرِّسالة ، بيروت ، ط٧ ، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م ، ص١٣١ ، رقم الحديث « ١٩٨ » . ورواه البخاري تحت رقم « ٦/٢٣٨ ». ورواه مسلم برقم « ٢٩٨٩ ». وأخرجه الإمام أحمد ، برقم « ٥/٢٠٥ ».

(٣) رجْلَهُ في الغَرْزِ : هو ركابٌ مِنْ جِلْدٍ . انظر ، محمد بن يعقوب الفيروز آباديّ : معجم القاموس المحيط ، رتَّبَهُ ووثَّقهُ ، خليل مأمون شيحا : ، ص٩٤٢ .

(٤) يحيى بن شرف النّووي الدمشقي : رياض الصالحين ، رقم الحديث « ١٢/ ٥١٩ »، ص١٢٩ . ورواه النسائي برقم « ٧/١٦١ » . ورجاله ثقات ، وحسَّنَهُ المُنذري في التّرغيبِ والتّرهيب ، تحت رقم « ٣/ ١٦٨ » .

كذلكَ ينبغي أنْ يكونَ نشاطُ العَلماءِ ، مُنصبّاً على التّربيةِ وِفْقَ محاسِنِ الأخلاقِ والقيَمِ النّبيلةِ ، ثُمَّ توجيهِ العامّةِ والخاصّةِ .

فمُراقَبَةُ وُلاةِ الأمرِ وقادةِ الأُمّةِ واجبٌ لا بُدَّ مِنْهُ ، نُصحاً وإرشاداً . يُقوِّمونَ المِعوجَّ ، ويُبصِّرونَ التّائِهَ ، يُثنونَ على المُحسنِ ، وَيأمُرونَ بالمعروفِ وينهوْنَ عنِ المُنكرِ ، طاعةً وعبادةً لله تعالى .

لكنْ نظراً لحالةِ التّردّي والتّرهُّلِ التي أصابتِ الأزهرَ- لا سيما عندما استولى الانتدابُ الإنجليزيُّ ، على دَفّةِ التعليمِ والثقافةِ والتّوجيهِ في أرجاءِ مِصْرَ كُلِّها - ظهرتْ حركاتٌ تُطالِبُ «بإصلاحِ الأزهرِ» ، كما تربطُ بينَ إصلاحِهِ وإصلاحِ حالِ المُسلمينَ ، وفَهْمِ رِسالةِ الإسلامِ على حقيقتِها ، ثُمَّ الرَّبْطُ بينَ هذا الإصلاحِ من جانبٍ ، ومُقاومَةِ الاستعمارِ الغربيِّ ، وسيادَةِ الأُمّةِ الإسلاميَّةِ على نفسِها مِنْ نفسِها مِنْ جانبٍ آخرَ .

لأنَّ الأزهرَ (هُوَ كَقلبِ الأُمّةِ ، إنْ فَسَدَ فَسدَتِ الأُمّةُ ، وإنْ صَلَحَ صَلَحَتِ الأُمّةُ . . . وإنْ فَسَدَ فَسيَحْتَرِفُ رجالُهُ الدِّينَ ، عَنْ غيرِ فَهْمٍ صحيحٍ للإسلامِ ، فيَطْغَى الانحرافُ في تَوجِيهِ الأُمّةِ ، وَتَنْتَشِرُ المذاهِبُ الانفراديَّةُ والإباحيَّةُ ، وتَزيدُ الأُمّةُ ضَعْفاً بِذلكَ عَلَى ضَعْفٍ ! ! وبِهذا يَخِفُّ وَزْنُ الإسلامِ ، وتَخِفُّ قِيَمُهُ في نُفوسِ النّاسِ . وبالتّالي يقوى النُّفوذُ الاستعماريُّ ، ولا يستطيعُ المُسلمونَ أنْ يُواجِهُوهُ في صَفٍّ واحدٍ كُتلةً قويَّةً . . . وإنْ صَلَحَ هذا الأزهرُ ، فَسَيَشِعُ مِنْهُ نُورُ الهِدايَةِ ، وسيكونُ عُلماؤُهُ قُدْوَةً للمواطِنِ المُسلمِ الصّالِحِ . . . قُدْوَةً في العَمَلِ ، والتَّفكيرِ مَعاً)(١).

فإصلاحُ الأزهرِ : يؤدّي إلى إصلاحِ أحوالِ المُسلمينَ ، الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ ، كما سينتَقِلُ الإصلاحُ إلى كُلِّ مَنْ يعيشُ مَعَ المُسلمينَ بالتَّبعِ لَهُم ، وإنَّهُ سيكونُ خيرَ وسيلةٍ للتّعارُفِ والتّآلُفِ بينَ المُسلمينَ وغيرِهم ، مِنَ الدُّولِ الغربيَّةِ

---

(١) محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص١٣٩.

والشَّرقيَّةِ على حدٍّ سواءٍ، حيثُ كانَ للإسلامِ والمُسلمينَ، فيما مضَى مِنَ الزَّمَنِ، يَدُ سَبْقٍ في توجيهِ الحضاراتِ القديمةِ، وصياغتِها صياغةً عَصْريَّةً إيمانيَّةً، تُناسِبُ زمانَها، وإنَّ العالَمَ اليومَ بأمَسِّ الحاجةِ، إلى الحضارةِ الإسلاميَّةِ، أصالةً ومُعاصرَةً؛ لأنَّ مَصْدَرَها الوحيُ الإلهيُّ، المُستَمدُّ مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ، فهيَ قائمةٌ على العدْلِ والمساواةِ والقيَمِ الرَّبانيَّةِ العاليَةِ.

يستطيعُ الباحثُ في الإصلاحِ الدِّينيِّ بشكلٍ عامٍّ، وفي إصلاحِ دورِ الأزهرِ بشكلٍ خاصٍّ، مُنذُ بدايةِ القرنِ العشرينَ الميلاديِّ، أنْ يجِدَ اتجاهَ الفكرِ الإسلاميِّ المُقاوِمِ للاستعمارِ الغربيِّ، قدْ توزَّعَ في شُعبتينِ، هُما:

(الشُّعبةُ الأولى: اتَّجهَتْ إلى التَّعبئَةِ الرُّوحيَّةِ والإصلاحِ، عن طريقِ عَرْضِ الإسلامِ عَرْضاً واضحاً، والعملِ على جَعْلِهِ أساساً في التَّربيةِ الوطنيَّةِ. وسبيلُ ذلكَ إصلاحُ الأزهرِ.

الشُّعبةُ الثَّانيةُ: اتَّجهَتْ إلى تعبئَةِ الحَماسِ القوميِّ في الجيلِ النَّاشئِ، عن طريقِ: الصَّحافةِ، والاجتماعاتِ العامَّةِ، ثُمَّ عن طريقِ تأسيسِ الجامعةِ المِصريَّةِ، . . . وفي داخِلِ الاتِّجاهِ السياسيِّ «القوميِّ»، الَّذي يُعَدُّ مُتوازناً مَعَ اتِّجاهِ «الإصلاحِ الدِّينيِّ»، إذْ كِلاهُما يهدِفُ إلى مُقاومَةِ الاستعمارِ الغربيِّ.

الإسلامُ [إذاً] دعوةٌ دينيَّةٌ إلى اللهِ تعالى، ومذهبٌ مِنْ مذاهِبِ الإصلاحِ لِهذا النَّوعِ البشَريِّ، وهدايتِهِ إلى ما يُدْنيهِ مِنَ اللهِ جلَّ شأنُهُ، ويفتَحُ لَهُ السَّعادَةَ الأبَديَّةَ، الَّتي أعدَّها اللهُ تعالى لِعِبادِهِ الصَّالحينَ. وهُوَ [أي الإسلامُ] وحِدَةٌ دينيَّةٌ يربِطُ بها البشَرَ أجمعينَ)[1].

ومنَ الإصلاحاتِ التي تعرَّضَ لها الأزهرُ، أوْ ما يُسمَّى بتطويرِ الأزهرِ، بعدَ ثورةِ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م، وانتهاءِ عهدِ المَلَكيَّةِ في مِصْرَ: هو أنَّ الثورةَ،

---

(١) محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص١٥٥، ٢٢٣.

أصْـدرتْ قـانونَ الإصـلاحِ أوِ التطـوير ، تحـتَ رقـم ١٠٣ لسـنَةِ ١٩٦١م . والخطواتُ الجديـدةُ في هـذا التطـويرِ ، لم تكُـنْ لتحقيـقِ المُسـاواةِ التّامَّـةِ ، في الوظيفةِ والدَّرَجَةِ الماليَّةِ لها ، وإنَّما في إلحاقِ أنواعٍ مِـنَ التَّعليمِ ، في المرحلـةِ العاليةِ ، مِنْ مراحِلِ الدِّراسةِ فيهِ ، وهيَ الأنـواعُ الـتي يُمثِّلُهـا عـددٌ مِـنَ الكُلّيّـاتِ العلميَّةِ والفنيَّةِ ، بجانبِ الكُليّـاتِ التَّقليديّـةِ الـثلاثِ السَّـابقَةِ ، الَّـتي كانـت قبـلَ التطويرِ والإصلاحِ .

لقد شاركَ «البهيُّ» في إعدادِ هذا القـانونِ ـ حيـثُ كـانَ يعمـلُ مُديراً عامّـاً لإدارةِ الثقافةِ في الأزهرِ ـ بتكليـفٍ مِـنْ الشـيخ الأكـبرِ[1] للأزهـرِ الشّـريفِ ، في تلكَ الآونةِ من فتراتِ الإصلاحِ والتطويرِ ،الدِّينيِّ والتَّربويِّ الثقافيِّ والاجتماعيِّ ، الَّتي واكبَتْها الحياةُ المُعاصِرَةُ ، للأزهرِ وعلمائِهِ وطُلاَّبِهِ ، فيصِـفُ ذلـكَ قـائلاً : (عَمِلْتُ جاهداً على تجديدِ الكُليّـاتِ ، فَتَقَـرَّرَ إعـادَةُ الكُليّـاتِ الـثّلاثِ : أُصـولِ الدِّينِ ، والشَّريعةِ ، واللُّغةِ العربيَّـةِ ، بالإضـافةِ إلى الكُليّـاتِ العلميَّـةِ والعَمَليَّـةِ ، وعندما وضَعْتُ مناهجَ الكُليّـاتِ ، تطبيقـاً لِهـذا القـانونِ الجديـدِ ، زيـدَتْ سـنةٌ دراسيَّةٌ ، وسُمِّيتْ بالسَّنةِ الإعداديَّةِ أوِ التّمهيديَّةِ ، وكُنتُ أحرِصُ علـى بقـاءِ هـذهِ السَّنةِ ، وعلى جِدِّيَّـةِ الدِّراسـةِ فيهـا . . . وكـانَ بـينَ خُطَـطِ الإعـدادِ للمُدرسـينَ ، إرسـالُ بعـضِ البعثـاتِ الدِّراسـيَّةِ ، إلى أوروبّـا الغربيَّـةِ والولايـاتِ المتّحـدةِ

---

(١) الشيخ الأكبر : هو الشيخ «محمود شلتوت»، حيثُ قدّمَ السيد «كمال رفعت»ـ مسئول شؤون الأزهر في بداية عهد الثورة ـ مشروع القانون ، إلى رئيس الحكومة المحليّة ، وهو السيد «كمال الدين حسين» ، الذي سألَ الأستاذَ الأكبرَ ، عمَّن يُمثِّلُ الأزهرَ ، عند مناقشة القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م ، فذكرَ له : الشيخ «محمد نور الحسن» وكان يعملُ وكيلاً للأزهر ، والأستاذ الدكتور «محمد البهي» المدير العامّ لإدارة الثقافة في الأزهر . حينئذٍ ، انظر ، محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهرِ ، طالب . وأستاذ . ووزير ، ص٦٧ .

الأمريكيَّةِ . وكانتْ جُملَةُ البعثاتِ المُزمَعِ إرسالُها إلى الخارجِ ، تبلُغُ ما يَقربُ مِنْ خمسِ مئةِ بعثَةٍ . وبالإضافةِ إلى ذلكَ وَضَعْتُ ميزانيَّةَ الجامعةِ . [في الأزهر] لسنة ١٩٦٢م ، وتَضمَّنتِ الكُليات كلُّها الوظائِفَ الجديدةَ ، أُسوةً بكادِرِ الجامعاتِ الأُخرى الموجودَةِ في الجُمهوريَّةِ . . . واختيرَ الموقِعُ الَّذي تُقامُ عليهِ مباني الجامعةِ في مدينةِ « نصر » ولكنْ لم يوضَعِ الحَجرُ الأساسيُّ لهذهِ المباني ، إلاَّ بعدَ أنْ تولَّيْتُ شئونَ الأوقافِ والأزهرِ .

ولم تكُنْ [هُناكَ] فِكرَةٌ إطلاقاً في فصلِ الكُليَّاتِ الثلاثِ التَّقليديَّةِ . . . عن باقي الكُليَّاتِ الأُخرى في المباني الجامعيَّةِ . لأنَّ الانعزاليَّةَ بينَ ما يُسمَّى بالتَّعليمِ المدنيِّ ، والتَّعليمِ الدِّينيِّ ، يجِبُ أنْ يُقضَى عليها في المُجتمعاتِ الإسلاميَّةِ .

فالإسلامُ ينظُرُ إلى جميعِ ألوانِ المعرفَةِ ، في هذا الكونِ ، على أنَّها سبيلٌ إلى معرفَةِ اللهِ تعالى . وللمُسلمينَ في تاريخِ العلومِ والمعارِفِ : ما يُعَدُّ أمجاداً لَهُم ، وفخراً للإسلامِ ، كَقُوَّةٍ دافعَةٍ نَحوَ العِلْمِ . وهكذا . . . تكوَّنَ تخطيطُ الجامعةِ ، وابتدأتْ مراحِلُ التَّنفيذِ . واشتركَ في هذا التَّخطيطِ عديدٌ مِنَ اللِّجانِ والأساتذَةِ . . . وعندما عُيِّنتُ مُديراً لَها بعدَ خُروجي مِنَ الوزارةِ . [إلاَّ أنَّ ذلكَ] لم يكُنْ بناءً على رَغْبَتي ، لذلكَ قدَّمْتُ استقالتي مُباشرَةً ، مِنْ وظيفةِ مُديرِ الجامعةِ ، في اليومِ الثَّاني لتشكيلِ الوزارةِ ، في السَّابعِ والعشرينَ منْ شهرِ مارِسَ ، سنةِ ١٩٦٤م) [١].

تبنّى « البهيُّ » اقتراحاتٍ هامَّةً ، كان يعتقِدُ أنَّها ضرورةٌ مُلِحَّةٌ لإدخالِ التَّطويرِ والإصلاحِ على الأزهرِ ، لا سيما أنَّهُ عايشَ الأزهرَ ، وقضى أكْثَرَ سِنِي

---

(١) محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر ، طالب . وأستاذ . ووزير ، ص٦٨-٧٧ .

حياتِهِ في ردَهاتِهِ ، فوجَدَ أنَّهُ لَمْ يُعْنَ عِنايةً جِدِّيَّةً بتعليمِ اللُّغاتِ الأُوروبيَّةِ[1]، ولا يكترِثُ كثيراً بالمنهَجِ العلميِّ في البحثِ المعرفيِّ ، وإنَّ ثقافةَ خِرِّيجيهِ أُحاديَّةٌ محدودةٌ ، لا تستطيعُ أنْ تواجِهَ الصَّليبيَّةَ الاستعماريَّةَ ، ولا الماركسيَّةَ الإلحاديَّةَ ، الَّتي ابتُلِيَتْ بها بلادُنا العربيَّةُ والإسلاميَّةُ . (وقَدْ أُصيبَ الأزهرُ بنكسةٍ ، في السَّنوات الأخيرةِ [ما بينَ] ١٩٥٤ـ ١٩٥٨م ، وعادَ إلى الجمودِ ، وحارَبَ اتِّصالَ عُلمائِهِ بالفكرِ الغربيِّ المُعاصِرِ ، ووقوفَهُم على مِنهاجِ البَحْثِ في الجامعاتِ الأوروبيَّةِ ، كما نزَلَ بمُستوى رِسالةِ الأزهرِ ، إلى تَعَلُّمِ اللُّغةِ العربيَّةِ وتعليمِها وحدَها ، مُهملاً شأنَ الدِّراساتِ الإسلاميَّةِ ، أوْ واضعاً إيَّاها في مَنزِلَةٍ ثانويَّةٍ ، وبذلكَ ضَعُفَ الأمَلُ ، في استعانَةِ الفكرِ الإسلاميِّ الإصلاحيِّ ، على تقويَةِ شأنِ نفسِهِ ، بمؤسَّسةٍ إسلاميَّةٍ عاليَةٍ مثلِ الأزهرِ)[2].

لقد كان «البهيُّ» حزيناً مهموماً ، لِما آلَ إليهِ الأزهرُ مِنْ ضعفٍ وعُزْلَةِ المُتَخرِّجِ فيهِ ، عنْ مُجتَمَعِهِ الَّذي يعيشُ مَعَهُ . والأمرُ الذي يُقْلِقُهُ أيضاً : هُوَ احترافُ هذا المُتَخَرِّجِ ، بالدَّعْوةِ إلى الإسلامِ وبالرِّسالَةِ الإسلاميَّةِ ، واتِّخاذُها مِهنةً يَكْسِبُ منها قوتَ يومِهِ ، ويسعى عنْ طريقِها لِتَحْصيلِ أُمورِ معيشَتِهِ ، ممّا يُشكِّلُ خَطَراً على التَّعاليمِ والقِيَمِ الإسلاميَّةِ ، يتمثَّلُ في عَدَمِ الحياديَّةِ ، وانعدامِ التَّجَرُّدِ عنِ الغاياتِ الشَّخصيَّةِ ، في فَهْمِ واستلهامِ النُّصوصِ القُرآنيَّةِ ، ونُصوصِ السُّنَّةِ الدَّالَّةِ عليها . فالإسلامُ يتأثَّرُ قُوَّةً وضَعفاً ، بِقُوَّةِ الأزهرِ وضَعْفِهِ ، خاصَّةً إذا

(١) أدخَلَ الأستاذُ الأكبرُ المرحومُ الشيخُ «محمود شلتوت» ـ بعدَ تولّيهِ المشيخَةَ في أُكتوبر سنة ١٩٥٨م ـ تعلُّمَ اللُّغةِ الإنجليزيّةِ إجبارياً في المعاهدِ الثانويَّةِ [الأزهريّةِ] ، وأنشأ معهدَ «الإعدادِ والتَّوجيه» كمعهدٍ عالٍ تُدرَّسُ فيهِ ستُّ لُغاتٍ : الإنجليزيّةِ ، والفرنسيَّةِ ، والألمانيَّةِ ، والأندونيسيّةِ ، والأُرديَّةِ ، والسَّواحِليَّةِ . انظر ، محمد البهي : الفكرُ الإسلاميُّ الحديثُ وصلتُهُ بالاستعمارِ الغربيِّ ، ص٤٠٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص٤٠٨.

أهملَ مكانتَهُ التَّعليميّةَ ، والثّقافيَّةَ ، والاجتماعيَّةَ ، أو إذا تَخلّى عَنْ دَوْرِهِ القياديِّ عندئذٍ يُصيبُهُ الوهْنُ ، ويَعتَريهِ الضَّعْفُ ، فَيفقِدُ حينَها رسالتَهُ المُقدَّسةَ .

يُشيرُ «البهيُّ» ، إلى ذلكَ ، فَيقولُ : (الأزهرُ في رأيي ، هُوَ قِمَّةُ المؤسَّساتِ الإسلاميَّةِ في العالَمِ الإسلاميِّ ، الّتي كانتْ تستطيعُ مواجهةَ الصَّليبيَّةِ الاستعماريَّةِ ، والماركسيَّةِ الإلحاديَّةِ ، وكانتْ تستطيعُ أيضاً ، أنْ تُقدِّمَ للحياةِ الإسلاميَّةِ في مِصْرَ ، ووراء مِصْرَ ، أكبرَ العَونِ في حَلِّ المُشكلاتِ ، الّتي تدورُ في حياةِ الأُسْرَةِ الإسلاميَّةِ ، والاقتصادِ الإسلاميِّ ، والتَّوجيهِ الإسلاميِّ . وبِذلكَ كانَ يُمكِنُ أنْ تكونَ هُناكَ قُوّةٌ فِكْريَّةٌ روحيَّةٌ ثالثةٌ ، في الشُّعوبِ الإسلاميَّةِ ، تُواجِهُ القُوَّتيْنِ العالميَّتَيْنِ الرَّئيسيَّتَيْنِ [الرَّئيستَيْنِ في تلكَ الأيامِ] : الصَّليبيّةِ الغربيَّةِ ، والشُّيوعيَّةِ الدَّوليَّةِ ، ولا عِوَضَ عَنِ الأزهرِ . وكُلُّ يومٍ يَمُرُّ عليهِ في أزمَتِهِ ، يزيدُ في ضَعْفِ قيمَتِهِ ، ويُقلِّلُ مِنَ الانتفاعِ بهِ ، في تكوينِ تلكَ القُوَّةِ الثّالثةِ ، الّتي يجِبُ أنْ يكونَ لها شأنٌ اليومَ)[1] .

أرادَ «البهيُّ» أنْ يكونَ الأزهرُ شُعاعَ عِلْمٍ مُتكاملٍ ، يواكِبُ روحَ العَصْرِ في البحثِ العلميِّ ، لأنَّ الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ ينبغي أنْ تُعِدَّ : الطَّبيبَ الفقيهَ ، والمُهندِسَ المُحدِّثَ ، والرِّياضيَّ المُفسِّرَ ، والخطيبَ المُفَوَّهَ ، ليكونَ الخرِّيجُ الأزهريُّ خيرَ خَلَفٍ لِخَيرِ سَلَفٍ ، كالأئمَّةِ الأعلامِ من أمثالِ : الخوارزميِّ ، وابنِ سينا ، وابنِ رُشدٍ ، والإدريسيِّ ، وغيرِهِمُ الكثيرِ الكثيرِ ، مِمَّنْ جَمَعُوا بينَ خَيْرَيِ الدُّنيا والآخرةِ ، فحقَّقُوا في عِلْمِهِم فَرْضَيِ العَيْنِ والكِفايَةِ .

أرادَهُ تساوُقاً مَعَ هَدْيِ رسولِ اللهِ ﷺ ، في الحَثِّ على العِلْمِ النّافعَ ، وكأنَّهُ ثروةٌ لا يُدانيها شيءٌ مِنْ حُطامِ الدُّنيا الزّائلِ . عنْ أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ قال :

---

(١) محمد البهي : الفكرُ الإسلاميُّ الحديثُ وصلتُهُ بالاستعمارِ الغربيِّ ، ص٤٠٨ .

قال : رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ مَثَلَ عِلْمٍ لاَ يَنفَعُ ، كَمَثَلِ كَنْزٍ ، لاَ يُنفَقُ فِي سَبِيْلِ اللهِ »(١).

وحذَّرَ الرَّسولُ عليهِ السَّلامُ أُمَّتَهُ ، مِنَ العِلمِ الضَّارِّ والنِّفاقِ فيهِ . عَنْ عُمَرَ ابنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عَنهُ قالَ : حَذَّرَنا رسولُ اللهِ ﷺ « كُلَّ مُنافِقٍ عليمِ اللِّسانِ »(٢).

مِنْ هذا المُنطَلَقِ الإيمانيِّ كانتْ مطالبُ « البهيِّ » وخُطَطُهُ ، في تطويرِ الأزهرِ وإصلاحِهِ ، تختلِفُ جذرياً عمَّنْ سبقوهُ في هذا المِضمارِ ، حيثُ كانَ صاحبَ نظرةٍ ثاقبةٍ ، لِما يحتاجُهُ الأزهرُ الشّريفُ ، حيثُ إنَّهُ الخبيرُ بتجربتِهِ ، المُنبَثِقةِ منْ ثقافتِهِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ ، وإتّقانِهِ للجانبِ الإيجابيِّ الغربيِّ لُغةً ودراسةً علميّةً وبحثيّةً ، ممّا جعلَهُ يُزاوِجُ بينَ الأمرينِ .

فإصلاحُ الأزهرِ في نَظرِهِ ، ليسَ رفعَ مُرتَّباتٍ ، ولاَ إعادةَ طِباعَةِ الكُتُبِ المُتأخِرَةِ ، ولا بِزيادَةِ عَدَدِ الطُّلاَّبِ والعُلماءِ ، إنَّما : (إصلاحُ الأزهرِ فِكْرَةٌ ، وتنفيذُ رسالةٍ ، وحُسْنُ عَرْضِهِ ، والمُلاقاةُ بِهِ لِما يُواجِهُهُ المُسلِمُ مِنْ مشاكِلَ ، وهيَ رِسالَةٌ فريدَةٌ ، لاَ يُمكِنُ لِمؤسَّسةٍ تعليميَّةٍ أُخرى أنْ تنهضَ بها . ومَشْيَخَةُ الأزهرِ . . . هيَ إيمانٌ وَإدْراكٌ للقيَمِ ، وفَهْمٌ صادِقٌ للحياةِ والإيمانِ . . . [إنَّها كما يلي] :

أوّلاً : الإيمانُ باللهِ سبحانَهُ وتعالى .

ثانياً : الإدراكُ للكَرامَةِ الإنسانيَّةِ .

---

(١) نور الدِّين علي بن أبي بكر الهيثمي ، المُتوفى سنة « ٨٠٧هـ » : مَجمَعُ الزّوائد ومنبعُ الفوائدِ ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، لا . ط ، ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م ، رقم الحديث « ١ » . ورواه أحمد والبزار ورجاله موثّقون ، ١٨٩/٢،١ .

(٢) المرجع السابق ، رقم الحديث « ٤ » . ورواه الطبراني في الكبير ، ورجاله رجال الصّحيح ، ص ١٩٢ .

ثالثاً : الفَهْمُ لوضْعيَّةِ الشُّعوبِ الإسلاميَّةِ ، في خِضَمِّ المجالِ الدَّوليِّ المُعاصِرِ ، وفي التَّنافُسِ الغربيِّ والشَّرقيِّ ، على جَعْلِها [تَتبَع] وتسيرُ في فَلَكِ هذا أوْ ذاكَ . [ويتِمُّ تحقيقُ هذهِ الأهدافِ أو الغاياتِ] عنِ طريقِ الكُلِّيَّاتِ المُختلفَةِ - في دائرَةِ ما يُسمَّى بالكُلِّيَّاتِ النَّظَريَّةِ والعمليَّةِ - الَّتي تتكوَّنُ منها جامعةُ الأزهرِ ، بناءً على هذا القانونِ ، [رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م] يستطيعُ الطَّالِبُ المُتَخَرِّجُ فيها ، أنْ يُمارِسَ نشاطَهُ الإنسانيَّ والإسلاميَّ معاً . . . . وَهُوَ عندئذٍ أقربُ بأنْ تكونَ دعوتُهُ إلى اللهِ وفي سبيلِ اللهِ : أي للهِ خالِصَةً ، دونَ أنْ يُشرِكَ في إخلاصِهِ للهِ تعالى ، أوْ في دعوتِهِ غايةً أُخرى ، كتحصيلِ الدُّنيا مثلاً ، أو لتَحصيلِ مُتْعَتِها عن طريقِ هذهِ الدَّعوةِ نفسِها . وبذلكَ يكونُ أثَرُ هذا التَّنظيمِ الجديدِ ، في إحياءِ الأملِ المنشودِ ، ليسَ في مِصْرَ وحْدَها ، وإنَّما في كُلِّ بلدٍ إسلاميٍّ) . [١]

إنَّ الكُتْلَةَ الإسلاميَّةَ اليومَ ، تحتاجُ إلى انتشارِ وإشاعَةِ الوعي الإسلاميِّ بينَ أفرادِها ، لكي يتمكَّنوا مِنْ توصيلِ رسالةِ اللهِ تعالى ، إلى الأُمَمِ الأُخرى ؛ لأنَّهم أُمناءُ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى على شَرْعِهِ ، فهيَ وظيفتُهُمُ التَّكليفيَّةُ . فلا بُدَّ أنْ يكونَ هُناكَ مَركَزٌ ما ، لتوزيعِ هذا الوعي ودَفْعِهِ إلى الأمامِ ، لذا فإنَّ الأزهرَ بعدَ تطويرِهِ وإدخالِ الإصلاحِ عليهِ بالمفهومِ الثَّقافيِّ العامِّ في مناهِجِهِ ، يُمكِنُ أنْ يكونَ هو الأملُ المنشودُ ، في غدِ الأزهرِ ، وفي غدِ الإسلامِ والمُسلمينَ معاً .

• • •

---

(١) محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص٤١٢ ، ٤١٣.

المبحثُ الثاني

الإصلاحُ في أُسلوبِ إداراتِ الوعْظِ والإرشادِ

فَطِنَ «البهيُّ» مُبكِّراً إلى أنَّ الإسلامَ ، نهْضَةٌ دينيّةٌ ومدنيَّةٌ ، سواءٌ بسواءٍ ، فَهُوَ يَتَّسِعُ للتَّجديدِ والارتقاءِ والإصلاحِ ، في أساليبِ الدَّعوةِ والوعْظِ والإرشادِ ، وفيما يجِبُ الاجتهادُ فيهِ ، مبنًى ومَعنًى ؛ لأنَّهُ يهْدِفُ في المُحَصِّلَةِ النِّهائيَّةِ ، إلى النُّهوضِ العامِّ بالإنسانيَّةِ جمعاءَ .

(فوسائِلُ هذا النُّهوضِ ، تسيرُ في طريقِ الارتقاءِ ، ولا تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ محْدودٍ لاَ تتعدَّاهُ ؛ لأنَّها تَعْتَمِدُ على الارتقاءِ في العِلْمِ والعِرْفانِ . [ثُمَّ إنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ لا يُعارِضُ التطوّرَ والتَّقدُّمَ العلميَّ ، بلْ يَحُثُّ عليهِ ويعتبرُهُ عبادةً] . واستمرَّ المُسلمونَ بعدَ النَّبيِّ ﷺ ، يُجدِّدونَ في [أساليبِ العلمِ والوعظِ والدَّعوةِ] والحُكْمِ والدِّينِ ، وظَهَرَ فيهِم مِنَ المُجدِّدينَ : أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ وعُمرُ ابنُ الخطَّابِ ، وعُثمانُ بنُ عفَّانَ ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ ، رضيَ اللهُ عنهُم أجمعينَ ، وغيرُهُم ، [إلى يومنا هذا])[1].

بقيَ الإسلامُ يتجدَّدُ بمُرورِ العُصورِ والأزمنةِ على أيدي عُلماءَ مُجتهِدينَ أتقياءَ أنقياءَ ، يستقونَ عِلمَهُم مِنْ موردِهِ الأصليِّ : القُرآنِ الكريمِ ، والسُّنَّةِ الشَّريفةِ ، يُبَلِّغُونَ دعوةَ اللهِ تعالى إلى النَّاسِ ، بحَماسٍ وإخلاصٍ ، واستعدادٍ على العملِ والتَّضحيَةِ في سبيلِها ، مَعَ مُراعاةِ أدَبِ الحديثِ والحِوارِ ، فالواعِظُ لا بُدَّ أنْ يتَسلَّحَ بالعِلمِ الغزيرِ ، والحِلمِ والأناةِ ، ويُقْبِلَ بوجْهِهِ إلى مَنْ يُحَدِّثُهُم

---

(١) عبد المتعال الصعيدي : المُجدِّدون في الإسلامِ ، مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة ، لا . ط ، لا . ت ، ص٧-٢٢ .

ويُرْشِدُهُم ، وأنْ (يوضّحَ الألفاظَ بصوتٍ مُناسِبٍ لا هُوَ بالخافتِ الّذي لا يُكادُ يُسْمَعُ ولا بالمُرتفعِ المؤذي ، مَعَ تَجَنُّبِ العباراتِ أوِ الألفاظِ المؤْذِيَةِ ، أو غيرِ اللائقةِ ، فضلاً عَنِ الغيبَةِ أوِ النَّميمةِ . وعلى السّامِعِ أيضاً أنْ يُقْبِلَ بوجْهِهِ لِمُحَدِّثِهِ ، وأنْ يُولِيَهُ انتباهَهُ وإنصاتَهُ ، وألاّ يُقاطِعَهُ حتّى يُتِمَّ حديثَهُ . وأنْ يَحْرِصَ كُلٌّ مِنهُما ألاّ يَتَطَوَّرَ الحِوارُ إلى الجِدالِ أوِ المِراءِ ، بلْ يكونُ حِرْصُ كُلٍّ منهُما ، على الوصُولِ للحقِّ والخيرِ ، مَعَ افتراضِ كُلٍّ منهُما الخطأ في رأيِهِ ، كما يُفترَضُ فيهِ الصَّوابُ ، [وبالتّالي] نحنُ بشَرٌ ، وكُلُّنا فيهِ نَقْصٌ وعَيْب ، وواجِبُ المُسلمينَ أنْ يُبصِّرَ بَعْضُهُم بعضاً ، فالمؤمِنُ مِرآةُ أخيهِ . . . فلا يَتَحَرَّجُ في نُصْحِهِ . . . [كما يجبُ] ألاّ تحولَ مواقِعُ المسئوليَّةِ ، مهما تدرَّجتْ دونَ تبادُلِ هذهِ النصائحِ ، والتَّواصي بهدَفِ تسديدِ العملِ ، وتلافي السّلبيّاتِ والأخـطـاءِ ، ثُمَّ يَلْزَمُ مراعاةُ أدبِ أداءِ النَّصيـحـةِ ، وحُسْنُ اختيارِ الظَّرفِ والأُسلوبِ) (١).

إنَّ مِنْ ألْزَمِ الأُمورِ ، لِحُسنِ سَيْرِ العَمَلِ بينَ الواعِظِ ، وجُمهُورِ النّاسِ ، أنْ تتوفَّرَ الثِّقةُ وحُسْنُ الظَّنِّ بينهُما ، لِما يُحقِّقُهُ ذلكَ مِنْ تَعاوُنٍ صادِقٍ ، لإنجازِ مُتطلَّباتِ الدَّعوةِ ، فَيَتَجَدَّدُ أثرُها الثَّقافيُّ في النُّفوسِ ، كَما ينعكِسُ ذلكَ على السُّلوكِ العامِّ في الأُمَّةِ .

أمّا غزارةُ الثَّقافةِ الإنسانيَّةِ : فهيَ عونٌ للدُّعاةِ في انطلاقِ دعوةِ دينِنا ؛ لأنـّها تُمثِّلُ المهدَ الوفيرَ الصّالِحَ ، لانتشارِ الدِّينِ الإسلاميِّ وتقبُّلِهِ .

إذ إنَّ اللهَ تعالى يُقيِّضُ لِهذا الدِّينِ مَنْ يُجدِّدُ أمرَهُ كما وردَ في الحديثِ الشَّريفِ : عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عَنْهُ ، عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قال : « إنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ ، عَلَى رَأْسِ كُلِّ مائَةِ سَنَةٍ ، مَنْ يُجَدِّدُ لَها دِينَها »(٢).

---

(١) مصطفى مشهور : بين القيادة والجندية على طريق الدّعوة ، دار الدعوة للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ط ١ ، لا . ت ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) محمد ناصر الدين الألباني : سلسلة الأحاديث الصّحيحة ، رقم الحديث « ٥٩٩ »، ١٥٠/٢ . ورواه أبو داوود ، رقم الحديث « ٤٢٩١ » ، ص ٦١١.

وردَ بأنّ الأمّةَ ، يُرادُ فيها على ضَوءِ الحديثِ الشّريفِ ، هيَ : أُمّةُ الإجابةِ والدّعْوةِ الإيمانيّةِ ، أوْ هُمُ المُسلمونَ عامّةً على إطلاقِها . ويجوزُ أنْ تُحَدَّدَ بالدُّعاةِ : وهُم عندئذٍ أُمّةُ الدّعوةِ إلى اللهِ سُبحانَهُ وتَعالَى . وقيلَ المُرادُ في رأسِ المائة : (آخرُها ، وقيلَ : أوّلُها ، وقيل : غيرُ مُحدَّدَةٍ : أوّلُها أو وسطُها أو آخرُها . والمقصودُ بالتّجديدِ : هُوَ النُّهوضُ الدِّينيُّ والمدنيُّ . فالمُجَدِّدُ ينظرُ إلى المُسلمينَ ، في دعوتِهِ جميعاً ، فلا يُميِّزُ فريقاً على فريقٍ ، بل يسعى لِخَيْرِهِم عامّةً) [1].

مِنْ تمامِ رحمةِ اللهِ تعالى بعبادِهِ المؤمنينَ ، كمالُ وشُمولُ الإسلامِ ؛ إذْ جَعَلَ شريعَتَهُ صالحةً لِكُلِّ زمانٍ ومكانٍ ، غنيَّةً بعوامِلِ الحياةِ ووسائلِ التّجديدِ ، في كُلِّ الظُّروفِ والأحْوالِ ، فلا يَنْبَغي أنْ يقِفَ الوعّاظُ والمُصلحونَ حيارَى ؛ لأنّهُ يَجِبُ ألاّ يحولَ دونَ اضْطرادِ نُهوضِهِم وأساليبِ إرْشادِهِم ، أيّةُ مُعَوِّقاتٍ دُنيويّةٍ ، طالما أنّهُم يُريدونَ الإصلاحَ لأنْفسِهِم ولأُمَّتِهِم ، وللنّاسِ جميعاً ، فَهُم بذلكَ يُشارِكُونَ في تحقيقِ عالميّةِ الإسلامِ ، مُسترشِدينَ بقولِهِ تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ

---

(١) عبد المتعال الصّعيدي : المُجدّدون في الإسلام ، ص٢٢ .

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (سبأ:٢٨-٣٤).

إنَّ وظيفةَ الدُّعاةِ والمُصلِحيْنَ ، هيَ وظيفةُ الأنبياءِ والمُرسَلِيْنَ ، في تبليغِ دعوةِ اللهِ تعالى ، إلى عبادهِ ، لِذا ينبغي أنْ يكونوا مفاتيحَ خيرٍ للقُلوب والنُّفوسِ معاً ، مغاليقَ شَرٍّ لِكُلِّ أطيافِ الفسادِ والضَّلال ، والبلاءِ و الشِّرْكِ والكُفر والعِنادِ . وفي الآياتِ الكريمةِ تصويرٌ لِما يحدُثُ مِنْ عِتابٍ بينَ المُستكبِرينَ أو الرؤساءِ ، الَّذينَ اتَّخذوا للهِ تعالى أنداداً وشُركاءَ ، وبينَ الأتباعِ مِنَ المُسْتَضْعَفِينَ التَّابعينَ لسادَتِهم ، في الشِّرْكِ أَوِ الإعراضِ عن دينِ اللهِ تعالى ، في وقتٍ لا ينفعُ فيهِ نَدَمٌ ولا عِتابٌ ، حيثُ الحسابُ والجزاءُ ، إذْ يَتوقَّفُ العملُ الذاتِيُّ الذي كانَ يُفيدُ صاحِبَهُ عندئذٍ . وفي هذا توبيْخٌ للطَّرَفَيْنِ : الرُّؤساءِ والأتباعِ ، بسببِ شركِهِم ، وعِظَمِ خَطَئِهِم وخطَرِهِم ، وموقِفِهِمُ السَّلبيِّ مِنْ دعوةِ سيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ ، الَّذي خاطَبَهُ ربُّهُ عزَّ وجلَّ بقولِهِ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ .

أيْ (وما أرسلناكَ يا مُحَمَّدُ ـ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ للعَربِ خاصَّةً ، وإنَّما أرسلناكَ لعُمومِ الخَلْقِ ، مُبَشِّراً للمؤمِنينَ بجنَّاتِ النَّعيمِ ، ومُنذِراً للكافرينَ مِنْ عذابِ الجحيمِ .

لكنَّ هؤلاءِ الكافرينَ لا يعلمونَ ذلكَ ، فيَحْمِلُهُم جهلُهُم على ما هُم عليهِ مِنَ الغيِّ والضَّلال ، فيقولونَ على سبيلِ الاستهزاءِ والسُّخريَةِ : متَى هذا العذابُ الَّذي تُخوِّفُونَنا بهِ ، إنْ كُنتُم صادقينَ فيما تقُولونَ ؟ .

والخِطابُ هنا مُوجَّهٌ للنَّبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وللمؤمنينَ . [وفي الرَّدِّ عليهِم] قُلْ لَكُم زمانٌ مُعيَّنٌ للعذابِ ، يجيءُ في أجَلِهِ الَّذي قَدَّرَهُ اللهُ تعالى ، لا يَستأخِرُ لِرَغْبَةِ أحَدٍ ، ولا يتقدَّمُ لرجاءِ أحدٍ . وقالَ الَّذينَ كفَرُوا لا نُصدِّقُ بهذا القُرآنِ ، ولا بما سَبقَهُ مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّةِ الدَّالةِ على البَعْثِ والنُّشورِ .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ولو شاهدْتَ يا مُحَمَّدُ - عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - حَالَ الظَّالمينَ المُنكرِينَ للبَعْثِ، يومَ الحِسابِ، يَلومُ بعضُهُم بعضاً، ويؤنِّبُ بعضُهُم بعضاً، فيقولُ الأتباعُ للرُّؤساءِ: لولا إضلالُكم لَنا لكُنّا مُهتدينَ، وقالَ الرُّؤساءُ جواباً للمُسْتَضْعَفينَ: . . . بلْ أنتُم كفرتُم مِنْ ذاتِ أنْفُسِكُم، بسببِ أنكُم كُنتُم مُجرمينَ راسخينَ في الإجرامِ، وأخفَى كُلٌّ مِنَ الفريقَيْنِ النَّدامةَ على تَرْكِ الإيمانِ، حينَ رأَوُا العذابَ، مَخافةَ التَّعبيرِ، [وجعلَ اللهُ تعالى] السَّلاسِلَ في رِقابِ الكُفَّارِ، زيادةً على تَعذيبِهم بالنَّارِ، [فَهُم لا] يُجزَوْنَ إلاّ بأعمالِهِم الَّتي عَمِلُوها، ولا يُعاقَبونَ إلاَّ بِكُفْرِهِم وإجْرامِهِم)[1].

رؤساءُ الكُفرِ والفِتَنِ، مِنَ الجبابِرَةِ المُستكبرينَ، المخدوعينَ بالجاهِ والسُّلطَةِ والمالِ والثَّراءِ، ثُمَّ فريقُ المُستضْعَفيْنَ الأتباعِ، المخدوعِيْنَ المضْبوعِيْنَ، الَّذينَ تبلَّدَتْ مشاعرُهُم، وتعطَّلتْ قُلوبُهُم، بعدَ أنْ تسَمَّمتْ أفكارُهُم وعُقولُهُم، وقبلوا لأنْفُسِهِم الهَوانَ، بأنْ يكونوا ذُيولاً وأذنابا. أكلوا خيرَ اللهِ تعالى، لكنَّهُم أشركوا بهِ، فعبَدوا غيرَهُ، إنَّها صُورٌ تَتَكَرَّرُ، في كُلِّ حِينٍ وآنٍ؛ لأنَّ الصِّراعَ - بينَ الحَقِّ والخَيْرِ وأتباعها مِنْ جِهَةٍ، وبينَ الشَّرِّ وأصحابِهِ وزُمْرَتِهِ مِنْ جِهَةٍ أُخرى - مُستَمِرٌّ إلى يومِ القيامَةِ، لكنَّ العِبْرَةَ بالنتائجِ. ثُمَّ العاقِبَةُ الطَّيِّبَةُ للمُتَّقيْنَ. لهذا يقولُ اللهُ تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (سبأ: ٣٤، ٣٥).

تُفيدُ الآيةُ الكريمةُ: أنَّ اللهَ سُبحانَهُ وتعالى، لم يبعثْ في أهلِ قريةٍ مِنَ القُرى السَّابقَةِ رسولاً، مِنَ الرُّسُلِ لكي يُنْذِرَهُمُ العذابَ، إلاَّ تَصدَّى أهلُ الغِنى والنِّعْمَةِ فيها، مُعلِنينَ كُفرَهُم، وعدَمَ تصْديقِهِم لأصحابِ الرِّسالاتِ بِما جاءوا بِهِ مِنْ عِندِ ربِّهم.

---

(١) محمد علي الصَّابوني: صفوة التفاسير، ص١٤، ١٥.

فالمُترفونَ والأغنياءُ في تلكَ القُرى ، المُشار إليها كانُوا : (هُمْ [جَبابِرَةُ القومِ] وقادتُهم ورؤساؤُهُم في الشَّرِّ ، فَهُمُ الَّذينَ يُبادِرُونَ إلى تكذيبِ الأنبياءِ .

[أمَّا القصدُ مِنَ الآيةِ ، فَهُوَ]: تسليَةُ النَّبيِّ ﷺ ، بِسَبَبِ تكذيبِ أكابرِ قُريشٍ لَهُ .

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾

قالَ المُشركُونَ في مَكَّةَ : نحنُ أكثرُ أموالاً وأولاداً مِنْ هؤلاءِ الضُّعفاءِ المؤمنينَ . ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ . وإنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُنا لأنَّهُ راضٍ عَنَّا ، ولو لم يكُنْ راضياً عَنَّا ، لَما بَسَطَ لَنا في الرِّزْقِ ، قاسُوا أمرَ الدُّنيا على الآخرةِ ، وظَنُّوا أنَّ اللهَ تعالى كما أعطاهُمُ الأموالَ والأولادَ في الدُّنيا ، لا يُعَذِّبُهُم في الآخِرَةِ)[1] .

كانَ المُترفونَ إذاً بِظَنِّهِمُ الخاطِئِ هَذا ، أوَّلَ المُكَذِّبينَ للأنبياءِ والمُرسَلِيْنَ ، لِما شُغِلُوا بهِ مِنْ زخارفِ الدُّنيا ، وما غَلَبَ على عُقولِهم منها ، فقُلُوبُهُم أبداً مشغولَةٌ مُنهَمِكَةٌ ، إلاَّ مَنْ رَحِمَ اللهُ تعالى ، مِمَّنْ عَمَرَ الإيمانُ قُلوبَهُم ، فَغَيَّرَ سُلوكَهُم ، وصقَلَ عُقولَهُم ، وهَذَّبَ نُفوسَهُم .

هذهِ لَفْتَةٌ هامَّةٌ لأصحابِ الدَّعوةِ والإصلاحِ ، وقادَةِ التَّجديدِ والتطويرِ في المُجتمعاتِ ؛ لِكَي يُطَمْئِنُوا أصحابَ النُّفوذِ والمالِ على مصالحِهِم ، فلا تؤخَذُ منهُم غِيْلَةً بغيرِ حقٍّ ، تحتَ شِعاراتٍ زائفَةٍ ، مِثْلَ الاشتراكيَّةِ والتأميمِ ، أو المُصادرةِ القَصْرِيَّةِ : كالسَّلْبِ ، والنَّهبِ ، والغَصْبِ ، أوِ الاحتلالِ والاحتيالِ .

كما أنَّهُ مِنَ الأساليبِ النَّاجحةِ للدُّعاةِ والمُصلحينَ أيضاً ، التَّعَفُّفُ والتَّرَفُّعُ عمَّا في أيدي النَّاسِ ، والتَّجَرُّدُ عنِ المصالحِ الشَّخصيَّةِ ، والأطْماعِ الذَّاتيَّةِ .

فهذا سيِّدُنا شُعيبٌ عليهِ السَّلامُ ، يَكْشِفُ لقومِهِ بأنَّهُ على صِلَةٍ باللهِ سُبحانَهُ ، وعلى بيِّنَةٍ مِنْ رِسالَتِهِ ؛ لِذا فَهُوَ يَدعوهُم إلى ما فيهِ مصلحَتُهُم ، ليسَ لِزَعامَةٍ يَطلُبُها ، ولا ينتَظِرُ أجراً مادياً على رسالتِهِ ، مِمَّنْ يدعوهُم إليها . بلْ هذا هُوَ ما ينفيهِ كُلُّ رسولٍ أُرْسِلَ إلى قومِهِ ، إِذْ إنَّهُم يُريدونَ الإصلاحَ ما استطاعوا إلى

---

(١) محمد علي الصّابوني : صفوة التفاسير ، ص ١٦ ، ١٧ .

ذلكَ سبيلاً . وكما يقولُ اللهُ تعالى ، في مُحْكَمِ كتابهِ ، على لسانِ شُعيبٍ عليهِ السَّلامُ :

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ۝ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴾

(هود:٨٨-٩٠).

بيَّنَ شُعيبُ عليهِ السَّلامُ لِقومهِ : بأنَّ ما يدعوهُم إليهِ ليسَ مِنْ عِنْدِ نفسِهِ ، إنَّما هُوَ رسولٌ بعثَهُ اللهُ تعالى إليهم ، فَهُوَ مُكَلَّفٌ مِنْ ربِّهِ ، الَّذي تَكَفَّلَ ويتَكَفَّلُ برزقِهِ ، فإنَّهُ ليسَ صاحِبَ مصلحةٍ شخصيَّةٍ . وها هُوَ يُخاطِبُ قومَهُ قائلاً : (إنِّي أُريدُ بدعوتي : إصلاحَكُم واستقامةَ أمرِكُم ، . . . وشأني فيما أُريدُهُ لَكُم ، هُوَ شأنُ الدَّاعي فقطُ ، لا يحمِلُ [على أحَدٍ] ولا يَكرِهُ [أحداً] ، فإنْ وُفِّقْتُ فيما أدعو إليهِ ، كانَ توفيقي مِنَ اللهِ وحْدَهُ ، فَهُوَ الَّذي أعتَمِدُ عليهِ ، في كُلِّ شأنٍ أُباشرُهُ ، ثُمَّ أنِّي لا أطلُبُ زعامةً فيكُم ، ولا مالاً منكُم ، لا أُريدُ إطلاقاً أنْ أعودَ إلى عِبادَةِ ما تعبُدونَ ، ولا إلى سُلوكِ ما تَسلُكونَ في جَمْعِ المالِ . لا أُريدُ أنْ أُخالِفَ ما أدعوكُم إليهِ مِنْ عِبادَةِ اللهِ وحْدَهُ ، والعَدْلِ في الكَيْلِ والميزانِ ، إلى ما أنهاكُم عنهُ مِنَ الشِّرْكِ والوثنيَّةِ ، والظُّلمِ في المُعامَلَةِ التِّجاريَّةِ . وإنَّما يجبُ أنْ تُنحُّوا المُخالَفَةَ جانباً ، وتنظُروا فيما أدعوكُم إليهِ نظْرةً موضوعيَّةً ، وتعُودوا إلى اللهِ تائبينَ . ثُمَّ سُبحانَهُ جلَّتْ قُدرَتُهُ ، سَيَسَعُكُم برحمتِهِ ، ويرعاكُم بعنايتِهِ ومودَّتِهِ ، فَهُوَ رحيمٌ ودودٌ)(١).

---

(١) محمد البهي : التَّفسير الموضوعي للقرآن الكريم «تفسير سورة هود» : مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

أمّا إنكارُ قومِ شُعيبٍ عليهِ دعوتَهُ فَهُوَ آتٍ : مِنْ تأثُرِهِم بوضْعِهِم الماضي والحاضرِ ، وعدَمِ قُدرتِهِم على الانفكاكِ مِنْهُ ، وتقييمِ ما جاءَ في دَعوتِهِ تَقْييماً موضوعيّاً ، مُجَرَّداً مِنَ التَّبعيَّةِ . فَهُوَ إذْ يدعُوهُم إلى عِبادَةِ اللهِ تعالى وحْدَهُ ، كما يدعوهُم إلى التَّمسُّكِ بكرامَتِهِم كبَشَرٍ ، حاثّاً إيَّاهُم على اتِّباعِ العَدْلِ ، والبُعدِ عنِ البَخْسِ في الكيلِ والميزانِ .

وبذلكَ فإنَّهُ يَحثُّهُم إلى حياةٍ بعيدةٍ عنِ الخوفِ والقَلَقِ والاضطهادِ مُحَذِّراً لَهُم عمَّا حَدَثَ لمُجتمعاتٍ[1] أُخرى سابقةٍ ، عَصَتْ دعْوَةَ رُسُلِها ، وتَمادَتْ في غيِّها وفسادِها . وكأنَّما عَجَّلَتْ لِنفْسِها العُقوبةَ في الدُّنيا قبلَ الآخرةِ .

في ضَوءِ ما تقدَّمَ ، يستطيعُ الباحِثُ أنْ يقولَ : كانَ « البهيُّ » مُجَدِّداً حقيقيّاً ، يَعْرِضُ الإسلامَ عَرْضاً سَهلاً جَذّاباً ، في أُسلوبٍ مُشْرِقٍ وضيءٍ ، يتواءَمُ وطبيعةَ العصرِ الحديثِ الذي يَعيشُهُ .

كيف لا؟! وها هُوَ يوظِّفُ أُسلوبَ القُرآنِ الكريمِ توظيفاً موضُوعيًا ، في التَّوعيَةِ والإصلاحِ ، إذْ يربِطُ بينَ ما حَدَثَ من تجاوزاتٍ واعتداءاتٍ ، وانحرافاتٍ خطيرةٍ ، واحتكاراتٍ للثرواتِ الحيوانيّةِ والزراعيّةِ ، في الأُممِ السّابقةِ ، وما نَجَمَ عنْ تلكَ المُخالفاتِ مِنْ عُقوباتٍ إلهيَّةٍ ، وبينَ ما حدَثَ مِنْ استيلاءٍ على أوقافِ المُسلمينَ الخيريّةِ ، وإلغاءِ المِلكيَّةِ الخاصّةِ ، فَتحويلِ الاقتصادِ إلى مِلكيَّةِ

---

(١) من هذه المجتمعات : قومُ « نوح عليه السّلامُ » ، وقومُ « هودٍ عليهِ السّلامُ » ، وقومُ « صالحٍ عليهِ السّلامُ » ، وقومُ « لوطٍ عليه السّلام » ، فهذه مجتمعات سادت فيها الوثنيّةُ والشِّركُ باللهِ تعالى ، بجانب انحرافاتٍ أخرى خطيرة على البشريَّةِ . فقومُ « هود » طغوا بالقوّةِ الماديّةِ . وقوم ثمود تمادوا في احتكار الثروةِ الزراعية والحيوانيّةِ ، وجعلوها وقفاً على زعمائهم وكبرائِهم . وقوم « لوطٍ » عملوا على انقراض الجنس البشريّ ، عن طريقِ شُذوذِهم في العلاقةِ الجنسيّةِ . انظر : محمد البهي : التّفسير الموضوعي للقرآن الكريم « تفسير سورة هود » : مكتبة وهبة ، القاهرة ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

الدَّولةِ ، ثُمَّ إلغاءِ المحاكمِ الشَّرعيَّةِ في « مِصْرَ » ، تمهيداً لتطبيقِ « العَلمانيَّةِ » في جميعِ قطاعاتِ الدَّولةِ ، وِفْقَ قوانينِ يوليه ١٩٦١م .

حيثُ وعَدَتِ الجمهوريةُ العربيَّةُ المُتحدَةُ ، روسيا أو الاتحادَ السّوفيتيَّ سابقاً بذلكَ ، وهُنا يُشيرُ « البهيُّ » إلى ذلكَ . خاصَّةً عندما أُسندَتْ إليهِ ، وظيفةُ وزيرِ الأوقافِ وشُئونِ الأزهرِ ، فيقولُ : (وفي الوقتِ الَّذي تَوليَّتُ فيهِ الوزارةَ ، وجدْتُ أنَّ تسليمَ الأراضي الزِّراعيَّةِ ، للإصلاحِ الزِّراعيِّ قدْ تمَّ بالفعلِ ، وأَنَّ تسليمَ المِلْكيَّةِ العَقاريَّةِ ، للحُكمِ المحليِّ في سبيلِ إتمامهِ [قَدْ أُنجِزَ] .

ذلكَ تطبيقاً لقانونِ صَدَرَ باستيلاءِ الدَّولةِ على أوقافِ المُسلمينَ الخيريَّةِ ، على أنْ تتَكفَّلَ الدَّولةُ ، في حُدودِ طاقَتِها بالإنفاقِ على الدَّعْوَةِ وشُئونِها . والهدَفُ مِنِ استيلاءِ الدَّولةِ على أوقافِ المُسلمينَ الخيريَّةِ ، ضياعُ معالِمِها مُستقبلاً ، فإذا ضاعَتْ هذهِ المعالِمُ ، وطُلِبَ مِنَ الدَّولَةِ ـ آنذاك ـ أنْ تزيدَ في الإنفاقِ على الدَّعْوَةِ ، أوْ تستمِرَّ في المُستوى الجاري للإنفاقِ عليها ، كانَ لَها أنْ تَدَّعيَ : بأنَّها تُنفِقُ أكثرَ مِمَّا ينبغيَ [للدَّعوةِ أصلاً] في إيراداتِها .

ثُمَّ مِنْ جانبٍ آخرَ ، تقُومُ بتمييعِ الأوقافِ الخيريَّةِ : وذلكَ بِجعْلِ مصادِرِها مُبعْثَرةً بينَ أملاكِ الدَّولةِ ؛ لكيَ تُسهِمَ في تحقيقِ معنى « العَلمانيَّةِ » ، وإبعادِ ظلِّ الدِّينِ عنْ أنْ يكونَ لَهُ أثرٌ في التَّمييزِ بينَ فردٍ وآخرَ . فإنَّهُ يُمكِنُ الآنَ بعدَ استيلاءِ الدَّولةِ على الأوقافِ الخيريَّةِ : أنْ توزِّعَ دخلَها على المُسلمينَ وغيرِهِم ، دونَ أنْ يكونَ هُناكَ فارقٌ طائفيٌّ ، [كما يَزْعُمُ الاشتراكيُّونَ في مِصْرَ آنذاكَ] . نصَّ القانونُ أيضاً على إلغاءِ المحاكمِ الشَّرعيَّةِ ، وتَجميدِ القُضاةِ الشَّرعيينَ ، وتحويلِ التَّقاضي في شُئونِ الأُسْرَةِ إلى دائرَةٍ مَدَنيَّةٍ ، أُسوةً ببقيَّةِ الدوائرِ القضائيَّةِ الأُخرى ، واستثنَى هذا القانونُ : الأوقافَ القِبْطيَّةَ الخيريَّةَ ، تَرْضِيَةً لِصوْتِ الكنيسةِ القِبْطيَّةِ .

فكانتْ هُناكَ حوادِثُ عديدةٌ مُفْجِعَةٌ ، عِندَ تسليمِ عقاراتِ الأوقافِ إلى الحُكمِ المحليِّ . كُلُّها تدلُّ وللأسَفِ الشَّديدِ : على الانتهازيَّةِ ، واستباحَةِ أموالِ المُسلمينَ .

وأردْتُ أنْ لا تضيعَ هذهِ الأوقافُ ، وتضيعَ معالِمُ مِلكيَّتِها المحبوسَةِ على خَيْرِ المُسلمينَ ، فَتوسَّعْتُ في تسجيلِ «حُجَجِ الأوقافِ» وتصويرِها ، وتَلْخيصِ مَضْمونِها في سِجِلاتٍ تُعَدُّ وتُطْبَعُ ، وعَيَّنْتُ أربعينَ مِنْ مُتَخَرِّجي ، كُليَّةِ الشَّريعةِ بالأزهرِ ، للمُساعَدَةِ في إنْجازِ هذهِ الرِّسالَةِ ، وفَعلاً سارَ العَمَلُ فيها بدَفْعَةٍ قويَّةٍ ، وأُنْجِزَ عَدَدٌ كبيرٌ مِنَ الحُجَجِ)[1].

أرادَ «البهيُّ» بتسجيلِ هذه الحُجَجِ تفصيلياً والاحتفاظِ بها ؛ لتبقى دليلاً عينياً على أُصولِ هذهِ الأملاكِ ، وأنَّها وقفٌ للهِ تعالى ، لا يجوزُ شرعاً ، التَّصرُّفُ فيها إلاَّ في إطارِ ما حُبِسَتْ أو وُقِفَتْ لَهُ أو عليهِ ، مِنْ أبوابِ الخيرِ . ولكنْ بعدَ أنْ خرَجَ «البهيُّ» أو أُقيلَ مِنْ وزارةِ الأوقافِ ، عادَ الرُّقُودُ مِنْ جديدٍ إلى تسجيلِ الحُجَجِ ، ووزِّعَ الموظَّفونَ فيها إلى إداراتٍ أُخرى .

ثمَّ يتحدَّثُ «البهيُّ» بإسهابٍ ، واللَّوعةُ يتحرَّقُ لِهَوْلِها فؤادُهُ ، لِما لَحِقَ إداراتِ الوعْظِ والإرشادِ في مِصْرَ ، مِنْ حَيْفٍ وجَوْرٍ مادياً ومعنوياً ، تخطيطاً وتوجيهاً ، أرضاءً للتيَّاراتِ الاشتراكيَّةِ والماركسيَّةِ ، التي تبنَّاها النِّظامُ الحاكمُ في البلادِ حينئذٍ. إنَّهُ يصِفُ ما آلَ إليهِ وضعُ مؤسَّساتِ التَّوجيهِ والإرشادِ الدِّينيِّ، فيقولُ :(والرُّوحُ الَّتي وُجِدَتْ ، بعدَ خُروجي مِنَ الوِزارةِ ، لدى المسئولينَ فيها ، هيَ روحٌ تَتبَّعُ للأعمالِ الَّتي أنْشَأتُها ، أوْ ساعَدْتُ على إنمائِها ، للتَّمويهِ أوْ لِلتَّستُّرِ على القَصْدِ الأصيلِ مِنْ إخراجي مِنها . وما أُخرِجْتُ إلاَّ استجابةً

---

(١) محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر ، طالب . وأستاذ . ووزير ، ص ٨٠-٨٢ .

لأصحابِ الشُّورى ، في تطبيقِ الماركسيَّةِ في الوطنِ العربيِّ . ومِصْرُ في المُقَدِّمَةِ ، وإلاَّ : ما هُوَ السَّبَبُ في إلغاءِ دارِ القُرآنِ ، وَهَدْمِ مَسجِدِ «أولادِ عَنانَ» ، ليُقامَ مسجِدُ «الفتحِ» ، بدلاً منهُما بعدَ اعتمادِ مليونٍ ورُبعِ المليونِ مِنَ الجُنيهاتِ ، مِنْ بقايا حِساباتِ الأوقافِ ، في عَشْرِ سنواتٍ مضَتْ(1)؟! .

وما هُوَ السَّبَبُ في إلغاءِ مساكِنِ الأئمَّةِ [وخاصَّةً] في الوجْهِ القِبليِّ ، بَعْدَ توزيعِ سَبعِ مئةٍ وخمسينَ ألفاً مِنَ الجُنيهاتِ ، لِهذا المشروعِ على المُحافِظينَ ، وشُروعِ مُحافَظَةِ «البحيرةِ» بالفعلِ في إقامَةِ هذهِ المساكِنِ؟! .

ثُمَّ ما هو السَّبَبُ في إلغاءِ مَشْروعِ ضَمِّ الأئمَّةِ إلى مُدَرِّسي الأزهرِ في كادرٍ واحدٍ ، وتعيينِ شيخِ المعهدِ الدِّينيِّ الثَّانويِّ ، مُديراً للدَّعوةِ بالمُحافظةِ [ذاتِها] ، كما هُوَ مُشْرِفٌ على معاهِدِها؟! .

ومشروعاتٌ أُخرى عديدةٌ ، لو نُفِّذَتْ لكانَ عُلماءُ الأزهرِ ، أصحابَ ريادَةٍ حقّاً ، ولمْ يكونوا دُعاةَ سياسةٍ لا يؤمنونَ بها ، ولمْ يَشْتَرِكُوا في وضْعِها . ولكنْ أُريدَ لَهُم أنْ يسوقَهُمُ ، المَجلِسُ الإسلاميُّ الأعلى(2) سَوْقاً فَيُطيعُونَ ، إلى

---

(1) المدة الزمنية المعنية «بعشرِ سنوات مضت» : هي منذ السنوات الأولى من عهد الثورة في سنة ١٩٥٤م إلى مارس ١٩٦٤م ، عندما أُقيلَ «البهيُّ» من وزارة الأوقاف وشئون الأزهر . انظر ، محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر ، طالب . وأستاذ . ووزير ، ص ٨٠-٨٢ .

(2) المجلس الإسلامي الأعلى : أُنشئَ [هنا] المجلسُ ، في سنة ١٩٦١م ، على غِرارِ «المجلس الدِّينيِّ الأعلى» ، المُلحَقِ برياسةِ الوزارةِ السوفيتيّةِ في «موسكو» ، وقُصِدَ منهُ هُنا [في مِصْرَ] ، رصدُ الحركاتِ الإسلاميَّةِ ، وأصحابِ الإيمانِ والقوَّةِ الإسلاميَّةِ . وتتبُّعِ هذهِ الحركاتِ ورجالِ الإيمانِ باللهِ تعالى ، وإفسادِها ، وترويجِ الأباطيلِ عنها ، وضَربِها بالمؤامراتِ والتَّجَسُّسِ كما يُقالُ ، وهو مُلحقٌ بجهازِ المُخابراتِ . انظر ، المرجع السابق .

ما تشاءُ السياسةُ القائمَةُ أنْ تَسوقَهم نَحْوَهُ)[1].

هكذا انطلى المُخَطَّطُ السِّريُّ، «للمجلسِ الإسلاميِّ الأعلى» في مِصْرَ، على كثيرٍ مِنْ عُلماءِ الأزهرِ في تلكَ الحِقْبَةِ الزَّمَنيَّةِ، مِنَ ستِّينيّاتِ القرنِ العشرين. حيثُ أُبيحَ لَهُ أنْ يُنفِقَ ما يشاءُ مِنَ الأموالِ، في غَيْبَةِ رَقابَةِ الدَّولةِ، وفي ظلِّ يَقَظَتِها على السَّواءِ، فانتشرَ العَبَثُ، والإسرافُ، والفسادُ، في أموالِ المُسلمينَ، بمقاييسَ مُختلفةٍ، وغيرِ رشيدَةٍ، تُنسَبُ إليهِ مُنذُ إنشائِهِ في سنةِ ١٩٦١م. ولا يُعْجَبُ إطلاقاً عَنْ (موقفِ المسئولينَ إزاءَ تصرُّفاتِهِ، والتَّغاضي عَنْهُ، فَهُوَ جِهازُ جَمْعِ معلوماتٍ، وترويجِ إشاعاتٍ، وتَتَبُّعِ حَركاتِ وأشخاصٍ في مجالِ عُلماءِ الأزهرِ، وهيئاتِهِ، وطُلاّبِهِ الوافدينَ والمِصْريينَ على السَّواءِ.

[أمّا] إنشاءُ مَجَلَّةٍ[2] لَهُ، وإخراجُ كُتُبٍ ورسائِلَ عَنْهُ، وإحياءُ تُراثٍ قديمٍ إسلاميٍّ، هُوَ سِتارٌ فَحَسْبُ، يُخفي وراءَهُ الغَرَضَ الحقيقيَّ. وإلاّ:

- فهلْ نَشَرَتِ المَجَلَّةُ يوماً ما: مقالاً ضِدَّ الاشتراكيَّةِ الماركسيَّةِ؟ أَمْ ما كانتْ تَنشُرُهُ في هذا المجالِ، هُوَ تطويعُ الإسلامِ للماركسيَّةِ؟!.
- هلْ أخرجَ المجلِسُ كُتَيِّباتٍ ورسائِلَ، تَعرِضُ الإسلامَ في حَلِّ مشاكِلِ المُجتمعاتِ المُعاصِرَةِ، وإيجابيَّتِهِ كمنهجٍ في حياةِ الإنسانِ؟.
- هلْ نُشِرَ [أوْ صَدَرَ عَنِ المَجْلِسِ] مِنَ التُّراثِ الإسلاميِّ، ما يحتاجُهُ المُسلِمُ

---

(١) محمد البهي: حياتي في رحاب الأزهر، طالب. وأستاذ. ووزير.

(٢) المقصود بالمجلّة هي: مجلّةُ «منبر الإسلام»، والتي كان يُصدرها ما يُسمّى «بالمجلس الإسلاميِّ الأعلى». أما الموضوعان الرئيسان اللّذان شاركَ فيهما [كتابةً] بعضُ عُلماء الأزهر، [في وقتها] هُما[بعنوان]: «الخواجة أبو رقيبة» [رئيس تونس آنذاك]، و «نَتْفِ ذَقْنِ الملك فيصل» [ملكِ المملكة العربيَّةِ السّعوديَّة]، في حينها. [فهذا الاستكتابُ] لا يَليقُ بإنسان مُثقَّفٍ، فضلاً عنْ أنْ يكونَ مِنْ أصحابِ الفضيلَةِ. انظر، المرجع السابق، نفسه.

في حياتِـهِ اليوميَّـةِ ، مِمَّـا يُغنيـهِ عـنِ [عُجَـرِ وَبُجَـرِ](1) الـنُّظُمِ الإنسـانيَّةِ المُعاصِرَةِ؟)(2)

هذهِ تساؤلاتٌ عِدَّةٌ ، أشْعَرَتِ «البهيَّ» أنَّ الإسلامَ في مِصْرَ ، أصبحَ يتيماً مُضَيَّعاً ، ليسَ هُناكَ مَنْ يُحْسِنُ عَرْضَهُ ، كما لا يَجِدُ مَن يُدافِعُ عنهُ ، ويمحو أثَرَ الأذى الّذي يشوبُ حقائقَهُ ، ويُشوِّهُ ملامحَهُ .

بَلِ اصطدَمَ حِرْصُهُ على إداراتِه لعَمَلِهِ - كَمُديرٍ لشئونِ الأزهرِ والأوقافِ - بعراقيلَ حالَتْ دونَ تطويرِهِ وتجديدِهِ ، ومُتابَعتِهِ لمراكزِ الوعظِ والإرشادِ ، بُغيَةَ التَّعديلِ والتَّوجيهِ والإصلاحِ ، ومُراقَبةِ مرؤوسيهِ تدريباً وتجويداً للأداءِ والإنتاجِ . إلاَّ أنَّـهُ وجدَ صُدوداً ومُعارَضَةً عنيفةً ، وعراقيلَ مُحْبِطَةً ومُثبِّطةً للعزمِ ، بقَصدٍ أو بغيرِ قَصْدٍ . ثُمَّ يَصِفُ ذلكَ ، قائلاً : (قدْ حَدَثَ أنّي قُمْتُ ، بزيارةِ مَعْهَدِ المنصورةِ ، بَعْدَ التَّفتيشِ عَلى إدارةِ الأوقافِ بها ، وما أنْ وَصَلْتُ إلى القاهرةِ ، حتَّى اتّصلَ بي أُستاذُنا(3) تليفونيّاً [هاتفيا] ، وطَلَبَ إليَّ : أنْ لا أُباشِرَ أيَّةَ زيارةٍ مُسْتَقْبَلَةٍ ، لِمَعْهَدٍ أزهَريٍّ خارجَ القاهرةِ ، إلاَّ بعدَ موافَقَتِهِ . وعَلى أنْ أتّصِلَ

---

(1) عُجَرِ وَبُجَرِ : روي عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ، أنَّهُ طافَ ليلةَ وقعةِ الجملِ على القتلى ، مع مولاه قَنْبَرٍ . فوقف على طلحة بن عُبيد الله ، وهو صريعٌ ، فبكى ثمّ قال : عزَّ عليَّ أبا محمدٍ ، أنْ أراكَ مُعفَراً تحتَ نجومِ السَّماءِ ؛ إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري! قال محمد بن يزيد : معناه هُمومي وأحزاني ، وقيلَ : ما أُبدي وأُخفِي . انظر ، محمد ابن مكرم بن منظور : لسان العرب ، مج ٩ ، ٩/٥٥ .

(2) محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر ، طالب . وأستاذ . ووزير ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(3) أُستاذنا : المقصودُ بِهِ هو : الشَّيخُ «محمود شلتوت» ، حيثُ أصدر قراراً إدارياً ، بتحديدِ مكافأةٍ ماليّةٍ له مقدارُها ستون جُنيهاً ، تصرف من الاعتماد الخاص بمجمع البحوث ، في ميزانيّة ١٩٦٢/١٩٦٣م. وسنُّهُ في ذلكَ الوقت ، فوق الخامسة والسِّتِّينَ ، أي تجاوزَ سِنَّ المعاشِ المُحدَّدِ لعُلماءِ الأزهر . واعتمدَ في ذلك على إجازةٍ من مدير مكتب «حسين الشّافعي» ، فأصدر «البهيُّ» قراراً بوقفِ الصَّرفِ . انظر ، محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر ، طالب . وأستاذ . ووزير ، ص ٨٦-٨٨ .

بأحَدِ أصْهارِهِ ، في كُلِّ شأنٍ مِنْ شؤونِ المعاهدِ ، لأخْذِ رأيِهِ قبلَ العَمَلِ ، أوْ قبلَ إصْدارِ القَرارِ بهذا الشّأنِ . فالتَمَسْتُ لَهُ العُذْرَ ، وطَمأنْتُهُ على مسئوليّتِهِ ووضعِهِ . . . وفي المساءِ ذهَبْتُ إلى مَنْزِلِهِ بِمِصْرَ الجديدةِ . . . فَسَلَّمْتُ عليهِ وقَبّلْتُ يَدَهُ . ولكنْ كانَ مُنْفَعِلاً ، مِنْ زيارَتي لِمَعْهَدِ المَنْصُورةِ ، إلى حَدِّ أنّي لمْ أستَطِعْ أنْ أُهَدِّئَه . خرَجْتُ وفَكّرْتُ في الطّريقِ الّذي يُعينُني ، على أدائي للمسْؤوليّةِ ، وفي الوقتِ نفسِهِ يُرضِي الأُستاذَ الأكْبَرَ . ولمْ يَكُنْ هذا الطّريقُ بالطّبْعِ ، هُوَ أخْذُ رأيِ بعْضِ أصْهارِهِ ، قبلَ البَتِّ بِشُؤونِ الأزهرِ)[١] .

استشعَرَ «البهيُّ» أمانةَ المسئوليّةِ ، وتكاليفَ الرِّسالةِ الإلهيَّةِ . مِنْ واقعِ مركَزِهِ في وزارةِ الأوقافِ وشئونِ الأزهرِ ، قبلَ أنْ يَتَقَلَّدَ مَنْصِبَ وزيرٍ فيها . ثُمَّ عايَنَ ما يُدارُ في أروقَةِ حكومةِ الثّورةِ المِصريَّةِ ، مِنْ إقصاءٍ لِمراكِزِ الوعظِ والإرْشادِ ، وإداراتِ المعاهدِ الدِّينيَّةِ . وإحلالِ ثقافةِ حزبِ الاتحادِ الاشتراكيِّ ، والمجلسِ الأعلى للشئونِ الإسلاميَّةِ ، الّذي كَوَّنَ رئيسُهُ[٢]: (جمعيَّةً تعاونيَّةً للإسكانِ ، وكانت باكُورةُ أعمالِ هذهِ الجمعيَّةِ : أن اشتَرَتْ مِنْ وزارةِ الأوقافِ ، قَصْرَ «نسيم باشا» ، وحديقتَهُ الواسعَةَ في شارعِ الهَرَمِ ، بسعرِ المترِ المُربَّعِ اثنينِ وثمانينَ قرشاً صاغاً ، على أنْ تكونَ تَكْلِفَةُ المرافِقِ على حسابِ الجمعيَّةِ . وذلكَ أُسوةً بالسِّعرِ الّذي وافقتْ عليهِ الوزارةُ [أيْ وِزارةُ الأوقافِ] ، لجمعيَّةِ القُضاةِ في مدينةِ الأوقافِ)[٣].

---

(١) محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر ، طالب . وأستاذ . ووزير .

(٢) رئيسُ المجلس الأعلى للشئون الإسلاميّةِ ، والّذي أنشأهُ هو : الصّاغ «عبد الله طعيمة» ، عندما تولّى أمرَ الأوقاف ، في سنةٍ سابقة لعام ١٩٦١م . [قبلَ أن يتولى «البهيُّ»] . وقد كوّنَ جمعيّةً للإسكان برئاستهِ كوزير ، وعضوية الصّاغ «محمد عبد القادر حاتم» والصّاغ «إبراهيم الطّحاويّ» والملازم ثان «محمد توفيق عويضة» . انظر . محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر . طالب . وأستاذ . ووزير ، ص ١١٦ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

أدركَ «البهيُّ» بفكْرِهِ الثَّاقبِ ، وحِسِّهِ الإيمانيِّ ، أنَّهُ يجبُ عليهِ أنْ يُنْقِذَ ما يُمْكِنُ إنقاذُهُ ، مِنْ نزيفِ أموالِ المُسلمينَ وأوقافِهم . خاصَّةً مِنْ أخطبوطِ ، ما يُسمَّى بالمجلسِ الأعلى للشئونِ الإسلاميَّةِ ؛ لأنَّ كُلَّ ما فيهِ : مِعْوَجٌّ ، ومُخْتَلٌّ ، يُسيِّرُهُ الهوى ، والرَّغَباتُ الشَّخصيَّةُ . فيَصفُهُ قائلاً : (لَمْ أرَ في حياتي : سُخريَةً وامتهاناً لأموالِ المُسلمينَ ، وللقيَمِ العُليا في ذاتِها ، مِثْلَ ما رأيتُ في تَصَرُّفاتِ هذا المجلسِ . . . وبعدَ أنْ سَحَبْتُ التَّفويضَ[1] - [مِنَ المُفَوَّضِ] ، في سُلْطَةِ رئيسِ المصلَحَةِ ، ومَنَعْتُ الصَّرفَ منْ أموالِ البِرِّ والخيْراتِ ، إلاَّ بعدَ العَرْضِ عليَّ [المقصودُ : الوزيرُ «البهيُّ»] ، وراجَعْتُ أعمالَ المجلِسِ فيما يَنْشُرُهُ مِنْ كُتيِّباتٍ ، ورسائلَ ، وفيما يُصدرُهُ مِنْ مَجَلَّةٍ كُلَّ شهرٍ ، - انكشفَ لي الغرضُ الرئيسيُّ [الرَّئيسُ] مِنْ إنشائِهِ . فكتبتُ إلى المجلسِ التَّنفيذيِّ ، مُقْتَرِحاً فصْلَ المجلسِ عنِ الوزارةِ [وزارةِ الأوقافِ] وإلحاقِهِ إمَّا بجمعيَّةِ الشُّبانِ المُسلمينَ بالقاهرةِ ، أو برياسةِ الجمهوريَّةِ ، بجَميعِ موظَّفيهِ ، وما هو مُخصَّصٌ لهُ في ميزانيَّةِ الوزارةِ . . . . وبمُراجَعةِ أعمالِ المجلسِ ، في فترةٍ قصيرةٍ مَضَتْ ، قبلَ أنْ أتولَّى الوزارةَ ، قَدَّمَتْهُ [أي المُفَوَّضَ] الإدارةُ القانونيَّةُ فيها ، بناءً على طَلَبي إلى النِّيابَةِ العامَّةِ ، في ثمانٍ وأربعينَ قَضيَّةً : عَصَبُها التَّزويرُ ، والاختلاسُ ، وأكلُ أموالِ المَسلمينَ بالباطِلِ ، والسَّفَهُ في إنفاقِها)[2].

---

(١) التفويض والمفوّض : فوّضَ الصّاغُ : «عبد الله طعيمة» ، الملازم الثاني : «محمد توفيق عويضة» ، في سُلطة رئيس المصلحة ، [أي سُلطة «عبد الله طعيمة» وزير الأوقاف في حينه] ، وأسندَ إليهِ وظيفةَ السكرتير المساعد للمجلس الأعلى للشئون الإسلاميّة ، وتولّى[من خِلال] هذه الوظيفة المدنيَّةِ ، الإشرافَ على فرع المُخابراتِ العامّة ، في الدائرةِ الثّالثةِ ، وهي الدائرةُ الإسلاميّةُ . وألحقَ هذا الفرعَ بوزارةِ الأوقافِ ، للتّستُّرِ على هدَفِهِ ، وللإنفاق على شئونهِ في غيرِ مُساءَلةٍ ، مِنْ أموالِ البِرِّ ، الّتي خَصَّصَها الواقفونَ على خَيْرِ المُسلمينَ . انظر ، المرجع السابق ، ص١١٧.

(٢) المرجع السابق نفسه .

دُهِشَ «البهيُّ» مِنْ هذهِ التّجاوُزاتِ الماليَّةِ في أملاكِ الأوقافِ، المنقولَةِ وغيرِ المنقُولةِ، لا سيَّما عندَما أرادتْ السُّلطةُ في مِصْرَ، أنْ تُطبِّقَ توصياتِ رسالةِ التَّقريبِ[1] بينَ «موسكو» و«القاهرة»، حيثُ تَضَمَّنتْ صراحةً: تجميدَ ووَقْفَ كُلِّ مشروعٍ إسلاميٍّ، خطَّطَتْهُ وزارةُ الأوقافِ وشئونِ الأزهرِ، خِشْيَةَ أن يتجمَّعَ المسلمونَ على المبادئِ والأفكارِ الإسلاميَّةِ الصَّافيةِ.

لذلكَ لم يستلمِ «البهيُّ» وظيفةَ إدارةِ جامعةِ الأزهرِ، الَّتي عُرِضَتْ عليهِ بعد إقالتِهِ مِنَ الوزارةِ، بسببِ ما كانَ يعتَقِدُهُ مِـنْ وُجُـودِ فَجْـوَةٍ كبيرةٍ، بينَهُ وبيـنَ ما يُريدُهُ نظامُ الحُكمِ، في مفاهيمِ الإصلاحِ والتطويرِ، لِرسالةِ الأزهرِ، وإداراتِ الوعظِ والإرشادِ فيهِ. بَلِ اكتفى أنْ يستَمِرَّ عُضواً في مجمعِ البحوثِ الإسلاميَّةِ[2]، الَّذي مِنِ اختصاصهِ أنْ يُشرِفَ على: إدارةِ الوعْظِ، والمكتبةِ العامَّةِ للأزهرِ، ومجلَّةِ الأزهرِ، والبعثاتِ الموفَدَةِ إلى الخارجِ، والطُّلابِ الوافدينَ مِنَ البلادِ الإسلاميَّةِ.

بقيَ «البهيُّ» يُصارِعُ مِنْ أجلِ، الحفاظِ على رسالةِ الدَّعوةِ، بيضاءَ ناصِعَةً، بالرُّغمِ مِنَ الصِّعابِ والمَشقاتِ، الَّتي واجهتْهُ، مُتأسِّيَنَ مُتَدَبِّراً لقولِهِ تعالى، الَّذي يَصِفُ فيهِ أُولي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ:

---

(١) رسالة التّقريب: حملَ هذهِ الرِّسالةَ المُشير: «عبد الحكيم عامر» أحد ضباط ثورة ١٩٥٢م، على إثرِ زيارته «موسكو»، في فبراير عام ١٩٦٤م، وقد تضمّنت هذه الرّسالةُ: تجميدَ النَّشاطِ الإسلاميّ، تمهيداً للمدّ الثّوري الاشتراكيّ، في أفريقيا وآسيا. وشلّ حركةِ الوزير [البهيّ] الّذي عُرِفَ بخُصومتهِ للفكرِ الماركسيّ، في أقوى كتاب خرجَ له، وهو «الفكر الإسلاميّ الحديث... وصلته بالاستعمار الغربي». انظر: محمد البهي: حياتي في رحاب الأزهر. طالب. وأستاذ. ووزير، ص ١٢٠.

(٢) مجمع البحوث الإسلاميَّة: شُكِّلَ لأول مرةٍ، في ظلّ القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م، فيما يسمَّى قوانين ثورة يولية المجيدة، ورشِّحَ «البهيُّ» عضواً فيه. واستمر إلى عام ١٩٦٨م. ثم انقطع عن حضور جلساتهِ. عمل فيه أعضاءٌ مُمثِّلون للبلدان التالية: المغرب، الجزائر، ليبيا، السودان، لبنان، فلسطين. انظر، محمد البهي: حياتي في رحاب الأزهر. طالب. وأستاذ. ووزير، ص١١٩.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧، ٨).

استحضَرَ «البهيُّ» نُصْبَ عينيهِ، ما سُطِّرَ في كتابِ الله تعالى، وما سَبَقَتْ بهِ مشيئتُه؛ لأنَّه هُوَ النّاموسُ الباقي، والمنهجُ المُطَّرِدُ. لا سيما الجزءُ الَّذي يُشيرُ فيهِ: إلى ميثاقِ اللهِ تعالى مَعَ النَّبيِّينَ عامَّةً، والنَّبيِّ مُحَمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأُولي العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ[1] عليهِمُ السَّلامُ خاصَّةً، في حَمْلِ أمانةِ هذا المنهجِ، والاستقامةِ عليهِ، وتبليغِهِ للنَّاسِ، والقيامِ عليهِ في الأُمَمِ الّتي أُرْسِلُوا إليها؛ وذلكَ حتّى يكونَ النَّاسُ مسئولينَ عنْ هُداهُم وضَلالِهِم، وإيمانِهِم وكُفرِهِم، بعدَ انقطاعِ الحُجَّةِ بتبليغِ الرُّسُلِ، عليهِم صلواتُ اللهِ تعالى وسلامُهُ.

فَتكونُ صلاحيَّةُ الرَّسولِ إذاً: (في البيانِ والتَّوضيحِ، ... في البِشارَةِ والإنْذارِ. وليْسَتْ لَهُ سُلْطَةُ جَزاءٍ، مِنْ ثوابٍ وعِقابٍ... والرُّسُلُ في رِسالاتِهِم، لا بُدَّ أنْ يُواجِهُوا أزَماتٍ؛ .... لأنَّ دَعْوَتَهُم تَدفَعُ إلى تَغْييرِ المُجتَمَعِ، في نِظامِهِ وسُلوكِ أفرادِهِ. إذْ لا يأتي رسولٌ إلاَّ للتَّغييرِ، بعدَ أنْ ينتشِرَ الفسادُ، والظُّلْمُ والطُّغيانُ، ولكنْ في النِّهايةِ لا بُدَّ أنْ ينتَصِروا، بإيمانِهِم ومُثابَرَتِهِم، وتَحَمُّلِهِم في سبيلِ دعْوَتِهِم، وبتوفيقِ اللهِ تعالى إيّاهُم. [يقولُ اللهُ تعالى]: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف: ١١٠).

فإنَّ وعدَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى، بنَصْرِهِ لرُسُلِهِ، [ومَنْ هُم على شاكلَتِهِم مِنَ]

(١) أولو العزم من الرُّسل: هم سيدنا «نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى ابن مريم، وسيدنا محمد عليهم الصلاة والسّلام أجمعين. انظر، سيد قطب: في ظلال القرآن، ٦/٥٤٢.

المؤمنينَ ، هُوَ وعْدٌ [لا و لم ولنْ] يتخلّفَ [أبداً] مهما طالَ الأمَدُ ، وكَثُرتِ المَشَقَّاتُ ، واشتَدَّتِ الصُّعوبةُ في طريقِ النَّجاحِ)[1].

إنَّ القُرآنَ الكريمَ وحيُ اللهِ تعالى ، صِدْقاً وهِدايةً ، ورحمَةً للنّاسِ ، الّذينَ عِندَهُم استعدادٌ للإيمانِ . حيثُ إنَّهُم يَتَخلَّوْنَ عنِ الغرَضِ الشّخصيِّ والهَوى النَّفسِيِّ ، في تبليغِهِم دَعْوةَ اللهِ سُبحانَهُ وتَعالَى ، بلْ يمتازُون بالنَّزاهَةِ والأَرْيَحِيَّةِ عندما يُحَكَّمُونَ في أُمورِ غَيْرِهِم ، أوْ يُقَيِّمُونَ ما يُعْرَضُ عليهِم ، منْ شؤونِ وقضايا النَّاسِ .

أمّا ميثاقُ اللهِ تعالى على أنبيائِهِ ورُسُلِهِ ، فَهُوَ واحدٌ مُطّرِدٌ (مِنْ لَدُنْ نُوحٍ عليهِ السّلامُ ، إلى خاتَمِ النَّبيِّين محمدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ميثاقٌ واحِدٌ ، ومنهجٌ واحدٌ ، وأمانةٌ واحِدَةٌ ، يَتَسلَّمُها كُلُّ مِنْهُم حتّى يُسَلِّمَها . ثُمَّ خَصَّصَ [اللهُ تعالى] صاحِبَ القُرآنِ الكريمِ ، صاحِبَ الدَّعْوَةِ العامَّةِ إلى العالميْنَ ، ثُمَّ عادَ إلى أُولي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وهُم أصْحابُ أكبرِ الرِّسالاتِ . [كما وُصِفَ الميثاقُ] ، بأنَّـهُ غليظٌ متينٌ ، [لأنَّـهُ] بَيْنَ اللهِ تعالى والمُخْتارينَ مِنْ عِبادِهِ ، ليتَلَقّوا وحْيَهُ ، ويُبلِّغُوا عَنْهُ ، ويقومُوا على مَنْهَجِهِ في أمانةٍ واستقامَةٍ . ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ . والصَّادقُونَ هُمُ المؤمنونَ ، فَهُمُ الّذينَ قالوا كلمةَ الصِّدْقِ ، واعْتَنَقُوا عقيدَةَ الصِّدْقِ . ومَنْ سِواهُم كاذبٌ ، لأنَّـهُ يَعْتَقِدُ بالباطِلِ ، ويقولُ كلمةَ الباطِلِ . [فكانَ جزاؤُهُ العذابُ الأليمُ ، يومَ القيامةِ]؛ [لأنَّ كَلِمَةَ الباطِلِ والكَذِبِ ، قِيلَتْ :] في أكْبَرِ قضيَّةٍ ، [هِيَ] قضيَّةُ العقيدَةِ)[2].

انْطَلَقَ « البهيُّ » في وسائلِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ ، مِنَ الصِّدْقِ في التَّبليغِ ، والأمانةِ في الإصلاحِ والتَّطويرِ ؛ لأنَّـهُ يوقِنُ : بأنَّـهُ سيُسأَلُ يومَ الحَشْرِ ، يومَ الإعلامِ على رُؤوسِ الأشْهادِ ، والإخْبارِ بما اقترَفَتْ يداهُ ، يومَ العَرْضِ على اللهِ

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم « تفسير سورة يوسف »، ص ٦٠ .
(٢) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ٥٤٢/٦ .

تعالى . فأحبَّ أنْ يُريَ اللهَ تعالى ، بأنَّهُ قاومَ ظاهِرةَ ترويجِ الباطلِ والضَّلال ، مِنْ جانِبِ زُعماءِ ، دُعاةِ الاشتراكيَّةِ والإباحيَّةِ ، الَّذينَ يعيشونَ مُخَدَّرينَ بالموجَةِ الماديَّةِ ، الَّتي أغْرَقَتْهم في طيَّاتِها ، فلا يعرِفُونَ الخُروجَ مِنْ ظُلُماتِها . إذْ يقولُ اللهُ تعالى فيهم ، ومَنْ هُمْ على شاكِلَتِهم :

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ۝ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأنعام ١٢٤-١٢٦).

توضِّحُ الآياتُ الكريمةُ : حالَ وأماراتِ الماديِّينَ المُشركينَ في كُلِّ مُجتَمَعٍ ، قبلَ الدَّعْوةِ الإسلاميَّةِ أو بعدَها ، إنَّهُم لا يؤمنونَ بمُعْجِزاتِ الرُّسُلِ ، ويتَحَدَّوْنَ مُعْجِزَةَ كُلِّ رسول ، بطَلَبِ غيرِها مِمَّا كانَ لغيرِهِ . (فالماديُّونَ في مُجتَمَعِ مكَّةَ مثلاً ، على عَهْدِ الرَّسولِ ، عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . . . يرفُضُونَ القرآنَ كمُعْجِزَةٍ لَهُ ، ويطْلُبونَ مُعْجِزاتٍ مِنَ النَّوعِ الماديِّ . لا لأنَّهُمْ سيؤمنونَ بها ، ولكنْ للتَّحدِّي فقط .

فاللهُ تعالى وحْدَهُ ، هو الَّذي يختارُ أينَ تكونُ رسالَتُهُ . لذا لا تتوَقَّفُ رسالةُ أيِّ رسول ، على اعترافِ الماديِّينَ بهِ ، . . . والشيءُ المؤكَّدُ هُوَ : أنَّ هؤلاءِ الماديِّينَ في كُلِّ مُجتَمعٍ ، مَهما روَّجُوا مِنِ اتِّجاهِهِمُ الماديِّ ، ومهما غلَوْا وطغَوْا بهِ . . . فإنَّهُم يُجْرِمُونَ في حقِّ الإنسانيَّةِ ، بما يَعيثُونَ مِنْ فسادٍ . . . ويَنْشُرونَ مِنْ تَحَلُّلٍ وانحلال . مِنْ أجْلِ ذلكَ : فَهُمْ مُمْتَهَنونَ عِنْدَ اللهِ تعالى .

وَصَغارُهُم في تَقديرِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى : هُوَ نوعٌ مِنَ الجزاءِ [الأُخرَويِّ] لَهُم . . . بالإضافةِ إلى عِقابِ الدُّنيا : مِنَ السُّقوطِ والزَّوالِ الحَتْميِّ . [وأمَّا] إرادَةُ

اللهِ تعالى في هِدايةِ مَنْ يَهتَدي : [تعني أنَّـهُ مَنْ] يكونُ عِندَهُ المَيْلُ النَّفسيُّ إلى الهِدايَةِ ، يُوفِقُهُ اللهُ تعالى إلى ذلكَ ، فالمؤمِنُ بذلكَ مُريدٌ ومسئولٌ ، والكافِرُ أيضاً ليسَ مسلوبَ الإِرادةِ الخاصَّةِ ، بلْ مُريدٌ ومسئولٌ ، فَهُوَ يختارُ الكُفرَ بتوجيههِ لإِرادَتِهِ .

[أمَّا] إرادَةُ اللهِ تعالى ، فهِيَ تتمثَّلُ : بالهدايةِ الَّتي يُرْسَلُ بها الرَّسولُ ، [كَمَصْدرٍ] يُعِينُ [على إيمانِ مَنْ يُريدُ الإِيمانَ] . مِنْ أجْلِ هذهِ المسئوليَّةِ الفرديَّةِ لَدى الإِنسانِ . . . كانَ عِقابُ اللهِ وغَضَبُهُ ، على الَّذينَ لا يؤمنونَ ، وبَقوا على كُفرِهِم . [كما أنَّ] القُرآنَ الَّذي أُوحِيَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ ، هُوَ الصِّراطُ المُستقيمُ مِنْ عِنْدِ اللهِ تعالى . ثُمَّ إنَّـهُ يُمَثِّلُ إرادَةَ اللهِ تعالَى في المُساعدَةِ على الإِيمانِ . . . وهو مفتوحٌ للنَّاسِ جميعاً ، وما على الإِنسانِ إلاَّ أنْ يُزيلَ الحوائِلَ ، الَّتي تَحولُ دونَ الاتِّجاهِ إليهِ . . . والنَّظَرِ فيهِ . . . لا بعينِ البُغْضِ والكراهيَةِ . . . ولكنْ بِنَظَرَةٍ واقعيَّةٍ فقط)[1] .

بهذا الوضوحِ العميقِ ، والشَّفافيَّةِ المُبْصِرَةِ ، والفِكْرِ الصَّوابِ الرَّشيدِ ، كانتْ نظْرةُ «البهيِّ» للحياةِ الدَّعَويَّةِ وأُسلوبِ تناوُلِها ، وأمانةِ نشْرِها ، والمُحافَظَةِ على هَيْبَتِها ، وسُلوكِ وسُمعَةِ العاملينَ عليْها .

يُريدُها إيمانيَّةً : توضِّحُ مجالَ الاعتقادِ الصَّحيحِ ، وتُبيِّنُ مَنهجَ العملِ السَّديدِ . يُريدُ لِمَنْ ينتسبونَ للأزهرِ وشئونهِ وإداراتِهِ ، ومراكِزِ الفكرِ وأهلِ الحَلِّ والعَقْدِ والوعْظِ فيهِ ، أنْ يُراجِعوا أنْفُسَهم ، ويعُودُوا إليها في غَيْبَةٍ مِنَ العواملِ المؤثِّرةِ ، أو الَّتي مِنْ شأنِها أنْ تؤثِّرَ عليهِم ، وهِيَ عواملُ البيئةِ الَّتي يعيشونَ فيها ، لا سيما قوانينُ الاشتراكيَّةِ ، التي أرادتْ للأزهرِ ألاَّ يُزْهِرَ أبداً ، وبالتَّالي ألاَّ يُثْمِرَ البتَّةَ .

---

(١) محمد البهي : التفسير الموضوعيُّ للقرآن الكريم «تفسير سورة الأنعام»، مكتبة وهبة، القاهرة ، ط٢ ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م ، ص ٩٧-٩٩ .

يُذكِّرُ «البهيُّ» الدُّعاةَ هؤلاءِ وحدَهم خاصَّةً بأنَّهم : هُمُ الَّذينَ ينبغي أنْ يَرَوْا ـ رؤًى واضحةً مفصَّلَةً ـ كُلَّ معالِمِ طريقِ الدَّعْوَةِ الإيمانيَّةِ ، الَّذي لا اعوجاجَ فيهِ إطلاقاً ، بحيثُ يُرشِدُهُم نحوَ هِدايةِ الإنسانِ إلى الحقِّ والصِّدْقِ ، وهِدايةِ المُجتَمَعِ إلى العِلمِ والعدْلِ ، والإحسانِ والروابطِ الإنسانيَّةِ .

كُلُّ هَذا وذاكَ مِنْ بابِ الأمانةِ ، الَّتي أشْفَقَتْ مِنْ حَمْلِها السماواتُ والأرضُ والجبالُ ؛ لأنَّها ضَخْمَةٌ هائلَةٌ ساحِقَةٌ . لكنْ تَكفَّلَ أعباءَ حَمْلِها الإنسانُ عامّةً ، وأهلُ العِلمِ الرّبانيِّ خاصةً . لِذلكَ ، فإنَّ مِنْ أهمِّ : (ما يَجِبُ أنْ يَتَّصِفَ بهِ ، الدّاعي إلى الحقِّ ، هُوَ الأمانةُ فيما لَدَيْهِ مِنْ رسالةٍ ، تَعَهَّدَ بتَبْليغِها [أوْ نَشْرِها] ، فَلا يُنْقِصُ ولا يَزيدُ فيها كلمةً [أوْ حرفاً واحداً] ... إذنْ أمانةُ الدّاعي إلى الحقِّ ، لا تَمُرُّ مِنْ غَيرِ اختبارٍ أوِ امتحانٍ لَها [ولَهُ أيضاً] وهُوَ في ذاتِهِ اختبارٌ صعبٌ ، لا يجْتازُهُ إلاَّ ذلكَ الَّذي ، عُهِدَتْ عليهِ الأمانةُ في أطْوارِ حياتِهِ ، وصارَتْ هيَ طبعاً لَهُ) [1].

إنَّ الإصْرارَ على الحَقِّ ، والصَّراحَةَ في الدَّعْوةِ إليهِ : تعبيرٌ عنِ الأمانةِ فيهِ . أمَّا كَشْفُهُ على ما هو عليهِ في كُلِّ وَقْتٍ : فإنَّهُ دليلٌ على الوفاءِ بهذِهِ الأمانةِ ، كما هُوَ في الوقْتِ نفسِهِ : السَّبيلُ إلى قُوَّةِ الدّاعي ، وإلى الاستِمْرارِ في الإيمانِ بِدَعْوَتِهِ ، ثُمَّ بِقُوَّةِ التَّحدِّي عِندما تَلْقَى مُعارَضَةً . قالَ اللهُ سُبحانَهُ وتعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ (الأحزاب: ٧٢، ٧٣).

يُعْتَبَرُ تَعَدُّدُ مفهومَ الأمانةِ ، هُوَ دليلٌ على عَظيمِ خَطَرِها وأثَرِها ، سواءٌ على الفَرْدِ أوِ المُجتَمَعِ . يظْهَرُ ذلكَ جليّاً واضحاً ، حينما أحْجَمَتِ الأجرامُ

---

(١) محمد البهي : الدِّين والدّولةِ «مِنْ توجيهِ القرآن الكريم» ، ص ٤٦٥ .

العِظامُ ـ مِنْ سماواتٍ وأرضٍ ، وجبال ، الّتي هيَ مَثَلٌ في القُوّةِ والشّدّةِ ـ عَنْ قَبولِ حَمْلِها ، خَشْيَةً ومَخافةً ، وليسَ مُخالَفَةً لأمْرِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى . لا سيَّما أنَّ عَرْضَها كان تخييراً لا إلزاماً .

لكنَّ الإنسانَ فَقَدْ تحمَّلَ مسئوليَّةَ الأمانةِ سواءٌ أكانتِ : (الفرائضُ والتَّكاليفُ الشَّرعيَّةُ ، أوِ [العِلْمُ : التِزاماً للطّاعاتِ ، وتَرْكاً للمعاصي] أوْ لأمانةِ الأموال . [وفي العُمومِ] إنَّها الإرادةُ والإدراكُ وحَمْلُ التَّبِعَةِ ، [وهيَ أيضاً] مِيزَةُ هذا الإنسان ، على كثيرٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ تعالى ، وهيَ مَناطُ التَّكريمِ الذي أعلنَهُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالى ، في الملأِ الأعلى ، وَهُوَ يُسْجِدُ الملائكَةَ لآدمَ عليهِ السلامُ ، فلْيَعْرفِ الإنسانُ [مكانتَهُ] عندَ اللهِ سُبحانَهُ ، ولْيَنْهَضْ بالأمانةِ الّتي اختارَها ؛ لكي يتَحمَّلَ عاقبةَ اختيارهِ ، وليكونَ جزاؤُهُ مِنْ [جِنْسِ] عَمَلِهِ ، ولِيَحِقَّ العذابُ على المُنافقينَ والمُنافقاتِ والمُشركينَ والمُشركاتِ . ولِيَمُدَّ اللهُ يدَ العَوْنِ للمؤمنينَ والمؤمناتِ ، فيتوبَ عليهم مِمَّا يقعونَ فيهِ ، تحتَ ضَغطِ ما رُكِّبَ فيهم مِنْ نَقصٍ وضَعْفٍ . وما يَقِفُ في طريقِهم مِنْ حواجِزَ وموانِعَ ، وَما يَشُدُّهم مِنْ جواذِبَ وأثقالٍ . . . فذلكَ فَضْلُ اللهِ تعالى وعونُهُ ، وهُوَ أقرَبُ إلى المغفِرَةِ والرَّحْمَةِ بعبادِهِ)[1].

بهذا النَّفَسِ الإيمانيِّ ، والشُّعورِ بمسؤوليّةِ أمانةِ العِلمِ والدّعوةِ ، عَمِلَ «البهيُّ» على تقْييمِ إداراتِ الوعظِ والإرشادِ ، بعدَ التَّروي والدّراسةِ المُتأنّيَةِ ، لجميعِ أحوالِها وشؤونِها ، وما يُحيطُ بها مِنْ تطوُّراتٍ إيجابيَّةٍ وسلبيَّةٍ . وفي إطارِ ذلكَ ، ومِنْ خلالِ عملهِ ، في وزارةِ الأوقافِ وشئونِ الأزهرِ ، بعْدَ أنِ استُبْعِدَتْ منها أملاكُ الوَقْفِ الخيريِّ ، وضَعَ عِدَّةَ رسالاتٍ للإصلاحِ والتَّطوير ، في المجالاتِ التاليةِ :

- رسالةُ الدَّعْوَةِ في المساجدِ .

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ٦/٦١٨ ، ٦١٩ .

- رسالةُ الأزهرِ في المعاهدِ الدِّينيّةِ .
- رسالةُ جامعةِ الأزهرِ الشَّريفِ .
- رسالةُ الدَّعْوَةِ في الخارجِ .

خَطَّطَ «البهيُّ» : للإصلاحِ بِكُلِ عَزمٍ وإخلاصٍ ، ودوَّنَ آلياتِ التَّنفيذِ ، وأعدَّ الوسائلَ والأساليبَ ، ولمْ يتوانَ قَيْدَ أَنْمُلَةٍ في واجبِهِ الدَّعويِّ ، بالرَّغْمِ مِنَ المُعارَضاتِ والتَّحدِّياتِ ، وتَنُّوعِ خُصومِهِ ؛ لأنَّهُ يؤمِنُ : بأنَّ مِنْ علاماتِ الإخلاصِ في الدَّعوةِ إلى اللهِ تعالى ، ومِنْ أمارَةِ صِدْقِ الحقِّ ذاتِهِ : (أنْ يَتَّسِعَ قلبُ الواعِظِ إليهِ ، وللنَّقدِ الَّذي يُوجَّهُ نَحْوَهُ ، وأنْ يَحْتَمِلَ الحَقُّ نفسُهُ نَقْدَ خُصومِهِ لَهُ ، كما يَحْتَمِلُ مُعارَضَتَهُم إيَّاهُ . . . . حَتَّى واسْتِهْزاءَهُم بِهِ .

إذْ صاحِبُ الدَّعْوَةِ إلى الحقِّ ، الَّذي يَضيقُ ذَرْعاً بالخُصُومِ . كَذلِكَ الحَقُّ الَّذي لا يَنْتَظِرُ النَّقْدَ مِنْ أعدائِهِ . بلْ [لا يَتوقَّعُ] مُعارَضَتَهُ والكُفْرَ بِهِ ، فإنَّ كُلاًّ منهُما يَفْقِدُ الصَّلاحيَّةَ لِكَونِهِ داعياً ، أوْ لِكَونِهِ حقّاً . فالدَّاعي الَّذي يَضيقُ ذَرْعاً بِخُصومِ دعوتِهِ ، لا يُمكِنُهُ أنْ يَستَمِرَّ في تلكَ الدَّعْوَةِ .

وأمّا الحَقُّ الَّذي لا يَحتَمِلُ مُعارَضَةَ المُعارِضِينَ لَهُ ، فَعَدَمُ احتمالِهِ لِهذهِ المُعارَضَةِ ، يُنبِئُ عَنْ : أنَّ بعضَ جوانِبِهِ ، لا يُصَوِّرُ ذاتيَّةَ الحقِّ . وعندئذٍ يكونُ مَشوباً بشيءٍ مِنْ عَدَمِ الصِّدْقِ والحقيقَةِ . وذلكَ أمْرٌ يَختَلِفُ عَنْ طبيعَةِ الحَقِّ وَجَوْهَرِهِ .

لذا وجَبَ على الدّاعي إلى الحقِّ ، أنْ يَحتَمِلَ خُصُومَهُ ، ووجبَ على الحقِّ نفسِهِ أيضاً ، أنْ يَنْتَظِرَ مُعارَضَتَهُ ، فَموقِفُ الدّاعي لا يكونُ [شِدَّةً] في الخُصومةِ ، فضلاً عَنِ الاشتباكِ في المُقاتَلَةِ ، وإنَّما يَتَمَثَّلُ في الإعْراضِ ، عَمَّنْ يُناوِنونَ الحقَّ ، ويُعارِضُونَ الدَّعوةَ إليهِ . وفي تَجَنُّبِ الاختلاطِ بهِم : في مَجْلِسٍ أوْ حَديثٍ ، [لقولِهِ تعالى] : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ

عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ٦٨، ٦٩).

فالقرآنُ الكريمُ يَطلُبُ مِنَ الرَّسولِ ﷺ ، أنْ يَتجنَّبَ مَجلِسَ أُولئِكُمُ ، الَّذينَ ينتقِدُونَ دعوتَه ، ويُعارِضُونَ الحقَّ الَّذي جاءَ بِهِ . . . ورَبَطَ تَجنُّبَهُ لِمَجْلِسِهِم ، بانتِقالِهِم إلى موضُوعٍ آخَرَ ، غيرِ موضُوعِ دَعْوتِهِ .

كذلكَ المؤمنونَ : يَجِبُ عليهِم أنْ يُغادِرُوا مجالِسَهُم [مجالِسَ المُعارِضِيْنَ المُستَهْزِئِيْنَ] أيضاً ، تعبيراً عَنْ عَدَمِ موافَقَتِهِم ، وأملاً في أنَّ هؤلاءِ النّاقِدينَ ، سيَكُفُّونَ عَنْ نَقْدِهِم ، عندما يُشعِرُهُمُ المؤمنونَ الصّادِقُونَ في إيمانِهِم ، بِعَدَمِ رِضاهُم عِنْدَ مُغادَرَتِهِم مَجْلِسِهِم)[1].

عندما يطلُبُ القُرآنُ المجيدُ ، مِنَ الرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، مُغادَرَةَ مَجْلِسِ النّاقِدينَ لِدعوتِهِ ، وقْتَ نَقْدِهِم إيّاها ، يُريدُ مِنْهُ فقط : أنْ يُعبِّرَ بهذا الموقفِ ، عنْ عَدَمِ رِضاهُ . ثُمَّ يَتْرُكُ البابَ مفتوحاً ، لَعَلَّ هؤلاءِ النّاقِدِيْنَ ، يعودُونَ إلى الحَقِّ يوماً ما ، بعدَ أنْ تَنْكَشِفَ لَهُم جوانِبُه ، إلاَّ إذا كانُوا مِنَ الَّذينَ ظَلَمُوا أنْفُسَهُم ، بِرَفْضِهِم دَعْوَةَ اللهِ تعالى ، ومَعَ ذلكَ لا يُباحُ إطلاقاً لِصاحِبِ الدَّعْوَةِ ـ بالرَّغمِ مِنْ عِلْمِهِ بِظُلْمِهِم لأنْفُسِهِم ، وإصْرارِهِم على مُعارَضَتِهِم ـ أنْ يَشْتَدَّ مَعَهُم في الخُصومَةِ ، أوْ أنْ يُقاتِلَهُم بسببِ الدَّعْوَةِ .

أمَّا الخُصومةُ : التي وَقَعَتْ في الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ ، بينَ المؤمنينَ وأعدائِهِم ، عَبْرَ التّاريخِ ، لمْ تَكُنْ بسببِ رَفْضِ الدَّعوةِ أو قَبُولِها ، بلْ كانتْ بسببِ الاعتداءِ الآثِمِ ، ومُحاوَلَةِ تقويضِ المُجتَمَعِ الإسلاميِّ واجتثاثِ جُذُورِهِ ، بإبْعادِهِ عَنْ

---

(١) محمد البهي : الدّين والدّولة « من توجيه القرآن الكريم » ، ص٤٦٧ ، ٤٦٨.

الدَّعْوَةِ الإيمانيَّةِ الحقيقيَّةِ في التَّوحيدِ ، حتَّى لا تبقَى لها قدَمٌ ثابتةٌ في مُجتَمَعِ البشَريَّةِ .

يَنبغي في هذا المجالِ : أنْ يُفرِّقَ الدّاعيةُ بينَ أمرين ، هُما : طبيعةُ الدَّعوةِ ، وما تستلزمُهُ مِنْ مُسالَمَةٍ ، وَحُسْنِ أُسلوبٍ ، واحتِمالِ العَقَباتِ في سبيلِها ، والتَّعوُّدِ على الصَّبرِ ، وعدَمِ العِنادِ واللَّجاجَةِ في الخُصومَةِ ، وبينَ الدِّفاعِ عَنِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ ، لِرَدِّ العُدوانِ وَصَدِّهِ عَنِ المُجْتَمَعِ الإسلاميِّ ، إنْ وَقَعَ عليهِ اعتداءٌ ؛ لِكَي يُؤَمَّنَ المُجْتَمَعُ ويَطْمَئِنَّ على رِسالَتِهِ ، ألا وهيَ رِسالَةُ الإسلامِ .

* * *

المبحثُ الثّالِثُ

الإصلاحُ في المساجدِ

نَظَّمَ الإسلامُ الحياةَ والأحياءَ بينَ العَمَلِ والعِبادَةِ ، فلمْ يَتْرُكِ النّاسَ هَمَلاً ، يَهيمونَ على وُجُوهِهِم ، بغيرِ هدَفٍ سامٍ ، يسْعَونَ إليهِ . بلْ أمرَهُم بأنْ يُخَطِّطُوا لتَنْفيذهِ لكي يأملوا تحقيقَهُ . فإذا نَضِجَتْ جميعُ أعمالِهِ ، أعْطى ثمَراً طيِّباً ، لِدينِ اللهِ تعالى ، ودُنيا النّاسِ .

مَنْ دخَلَ الإسلامَ إذاً وآمَنَ برسالَتِهِ ، يَتَساوى مَعَ غيرِهِ مِنَ المُسلمينَ ، في أداءِ عبادةِ اللهِ تعالى ، كما يجبُ عليهِ السَّعيُ للعملِ والكَسْبِ الصّالحِ الحلالِ ، وفْقَ الشَّريعَةِ الإسلاميّةِ الغرّاء ؛ لإصلاحِ حياةِ الفَرْدِ والمُجتَمَعِ . فلا ينبغي أنْ يترفَّعَ مؤمِنٌ باللهِ تعالى ، بحُجَّةِ عَملِهِ عن أداءِ العِبادَةِ ، ولا تَحُولُ عِبادةُ عابدٍ ، عَنْ مباشَرَةِ طَلَبِ الرِّزْقِ ، وابتغاءِ فضلِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى .

لذا يدْعو القُرآنُ الكريمُ المؤمنينَ ، إلى السَّعيِ إلى ذِكرِ اللهِ تعالَى ، في بيوتهِ سُبحانَهُ وتعالى ، وهيَ : المساجِدُ .

فإذا نُوديَ للصَّلاةِ مِنْ يومِ الجُمُعَةِ ، يَجِبُ على المُسلمينَ وُجوباً أنْ يَتْرُكُوا أعمالَهُم التي يُمارِسونَ ، وتجارَتَهُم التّي يُباشِرُونَ ، مِنْ وقْتِ النِّداءِ ، حتّى الانتهاءِ مِنَ الصَّلاةِ ، ثُمَّ يدْعُوهُم مَرَّةً أُخرى إلى الانتشارِ واستئنافِ العملِ ، مِنْ أجلِ الرِّزْقِ وشُئونِ الحياةِ ، باصْطِحابِ الذِّكْرِ في مُباشَرَتِهِم للعملِ ؛ لأنَّ ذلكَ أدْعى إلى استقامةِ العَمَلِ مِنْ جِهَةٍ ، ويؤدِّي إلى النَّجاحِ فيهِ مِنْ جِهَةٍ أُخرى . يقولُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ

﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (الجمعة: ٩-١١).

فالمؤمنونَ الَّذينَ يطْلُبُ اللهُ تعالى مِنهُم ، تَرْكَ العَمَلِ لأداءِ صلاةِ الجُمُعَةِ ، هُمُ المؤْمِنونَ أنفُسُهم الَّذينَ يُطْلَبُ إليهم ، التَّوجُّهُ إلى مُباشَرَةِ العَمَلِ بعدَ الانتهاءِ مِنها . أيْ ليسَ المُؤْمنونَ فريقَيْنِ : فَرِيقٌ يُباشِرُ العِبادَةَ داخِلَ المَسجِدِ . وفريقٌ آخرُ : يُباشِرُ العَمَلَ خارجَهُ .

لا يُوجَدُ في الإسلامِ أُناسٌ مُنْقَطِعُونَ للعبادَةِ فقط ، ولا عمَلَ لَهُم في الحياةِ ، كما أَنَّـهُ ليسَ هُناكَ : مَنْ يُباشِرُ العَمَلَ دونَ أنْ يَعْبُدَ اللهَ تعالى . فالمؤْمِنُ ليستْ عبادَتُهُ مُنعَزِلَةً عَنْ عَمِلِهِ ، وأيضاً عَمَلُهُ ليس مُنْعَزِلاً عَنْ عبادَتِهِ . فلا بُدَّ مِنَ التَّنسيقِ والمُزاوجَةِ بينَ العِبادَةِ والعملِ ، فلا يَطْغَى أَحدُهُما على الآخرِ ، بل إنَّ المفهومَ العامَّ للعَمَلِ ، بأنَّـهُ عبادَةٌ ، وقد نوَّهَ الحديثُ الشريفُ بذلكَ . عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ :

جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ[1] إِلَى بُيُوتِ النَّبِيِّ ﷺ ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبادَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا أُخبِرُوا كَأَنَّـهُمْ تَقالُّوهَا[2]، وقالُوا : أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ؟ وَقَدْ غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ومَا تأخَّرَ . قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أنَا فأُصَلِّي الَّليلَ أَبداً ، وَقَالَ الآخَرُ : وأَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفطِرُ ، وقَالَ الآخَرُ : وَأَنَا أَعْتَزِلُ النِّساءَ ، فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَداً ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إلَيْهِم فقالَ : «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ

---

(١) الرَّهط يعني : الجماعة من ثلاثة أو سبعةٍ إلى عشرة ، أو دون ذلك ، والجمع أرهاط . وفي الحديث ثلاثةُ رِجال ، هُم : علي بن أبي طالبٍ ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعثمان بن مظعـون ، رضـي الله عـنهم أجمعـين . انظـر ، إبـراهيم مـدكور ، المعجـم الوجيز ، ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٢) تقالوها : عدوها قليلةً بالنسبة لهم . قَلَّ الشيءُ قِلَّةً ، أي نَقَصَ ، وقلَّلَ الشيءَ : جعله قليلاً ، انظر ، المرجع السابق ، ص٥١٣ .

لِلهِ وَأَتْقاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّساءَ ؛ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فليسَ مِنِّي»[1].

الإسلامُ إذاً دينُ الوسَطيَّةِ والاعتدال ، فلا إفراطَ ولا تَفريطَ فيه . لِهذا ينبغي على المؤمِنِ والحالُ هكَذا ، أنْ يَتَّبِعَ الهَدْيَ النَّبَويَّ ، حيثُ يَكْمُنُ هُنا : في توجيهِ الرَّسول الحاكِمِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، إلى عِبادَةِ اللهِ تعالى ، كما يَدْعُو المؤمنينَ حاثّاً إيّاهُم على السَّعْي ، في سبيلِ الحَياة باعتدالٍ وتَوازُنٍ .

هكَذا يستوي عَمَلُ المؤمنِ خارجَ المسْجِدِ ـ في أيِّ مجالٍ مِنْ مجالاتِ الحيـاةِ : الاقتصاديَّةِ ، السياسيَّـةِ ، الثَّقافيَّةِ ، الصِّحَّةِ ، الرِّعايَـةِ الاجتماعيَّـةِ ، أوِ الخَدَماتِ العامَّةِ في أيَّةِ صورةٍ مِنها ـ مَعَ غيرِهِ مِنَ المؤمنينَ داخلَ المسجدِ ، في التَّوجيهِ إلى اللهِ سبحانَهُ وتعالى وعِبادَتِهِ . (ليستْ هُناكَ [في الإسلامِ] إذنْ حِرْفَةٌ في العِبادَةِ ، [أوْ] هُناكَ احترافٌ بأيِّ عَمَلٍ يَحُولُ دونَها . وليسَ هُناكَ رجالُ دينٍ ، ورجالُ دُنيا . أوْ [أُناسٌ للحربِ] في مَيدانِ القِتالِ ، [وآخرونَ لإمامَةِ الصلاةِ] في المَسْجِدِ .

الإسلامُ فيهِ طُرُقٌ شتَّى للسَّعي المُباحِ والكَسْبِ المشروعِ ، ولديهِ مجالاتٌ عديدةٌ مِنْ أجْلِ إتقانِ العملِ وتَجويدِهِ . ولكنْ هُناكَ عبادَةٌ واحدَةٌ ، ومعبودٌ واحِدٌ للجميعِ : تُؤدَّى عِبادَتُهُ كما يؤدَّى السَّعيُ نَحوَ العَمَلِ وابتغاءِ فَضْلِ اللهِ تعالى .

إنَّ توزيعَ المؤمنينَ إلى طائفَةٍ دينيَّةٍ ، تَتَكَفَّلُ بالقَوامَةِ على شُئونِ العِبادَةِ ، وأُخرى مَدَنيَّةٍ يوكَلُ إليها أَمْرُ السِّياسةِ ، وشُئونُ الحُكْمِ والإدارَةِ ، لا يعودُ إلى المبدأ الإسلاميِّ ، الَّذي يقضي أو يفتَرِضُ على الجميعِ ، بواجِبِ العَمَلِ في

(١) يحيى بن شرف النووي : رياض الصالحين ، تحقيق محيي الدين الجراح ، راجعه وأشرف عليه ، محمد علي الصابوني ، رقم الحديث «١٤٣» . متفق عليه عند البخاري ومسلم ، ص ٩٦ ، ٩٧ .

سبيلِ الرِّزْقِ ، ثُمَّ بِواجِبِ تَرْكِهِ العَمَلَ ، عِنْدَ الاجتماعِ في صلاةِ الجُمُعَةِ ، إلى أنْ يَتِمَّ أداؤُها ، كما تُصوِّرُهُ الآيةُ الكريمةُ السابقَةُ . وإنَّما [يعودُ تَصنيفُ هذهِ الطوائفِ الدِّينيَّةِ والمدَنيَّةِ] إلى تقليدٍ تأثَّرَ بِهِ المُسلمونَ ، في حياتِهِمُ الاجتماعيَّةِ ، بحيثُ أصبَحُوا يَظُنُّونَ : أنَّ التَّوفُّرَ على أداءِ العِبادَةِ ، يَحُولُ دونَ مُمارَسَةِ الإدارةِ وشُئونِ الحُكْمِ ، كما أنَّ مِنْ صلاحياتِ العَمَلِ المَدَنيِّ ، أوِ الدُّنيويِّ ومُباشَرَتِهِ : الأُميَّةَ في دينِ اللهِ ، والاستعلاءَ أوِ البُعْدَ عن أداءِ العِبادَةِ للمولى جلَّ شأنُهُ .

هذا الظَّنُّ الَّذي تَرَتَّبَ على التَّقليدِ ، الطَّارئ على نظامِ الإسلامِ ، يُعارِضُهُ مُعارَضَةً صريحةً تعقيبُ القُرآنِ الكريمِ هُنا ـ بعدَ أنْ حَدَّدَ المبدأَ الإسلاميَّ السابقَ لجميعِ المؤمنينَ بقولِهِ تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

(الجمعة:١١).

يَرى هذا التَّعقيبُ : أنَّ بعضَ المُسلمينَ ، قَدْ لا يَسْتَجيبونَ إلى نِداءِ العِبادَةِ ، كَما يَستَجيبونَ إلى إغراءِ التِّجارةِ أوِ اللَّهوِ . بلْ يُؤْثِرُونَ الوقوفَ عِنْدَ جانبِ الإغراءِ بما يُحقِّقُ مالاً ، أوْ مُتْعَةً للنَّفْسِ وراحةً لَها . ثُمَّ يُضمِّنُ تَعْقيبَهُ بأنَّ الاستجابةَ إلى نِداءِ العِبادَةِ ، لا تنطَوي على خُسرانٍ أوْ نَقْصٍ في الرِّزْقِ . بلْ على العَكْسِ : تنطَوي على خَيرٍ أكثرَ . لأنَّـها ستزيدُ استقامَةَ مَنْ يسعَى على تَحصيلِ رِزْقِهِ ، ثُمَّ تُحبِّبُ لِنَفسِهِ إتقانَـهُ للعمَلِ ، كما تَرْفَعُ أمانَتَهُ في أدائِهِ ، تلكَ هيَ وسائلُ النَّجاحِ فيهِ)[1].

عَزْلُ المؤمنِ لِنَفْسِهِ في أدائِهِ للعَمَلِ ، عَنْ مجالِ العِبادَةِ ، سواءٌ أكانَ بسببِ المالِ ، أوْ بِتَراخي النَّفْسِ أوْ تقاعُسِها ، يَجْعَلُ مِنْهُ ساعياً للعَمَلِ مِنْ أجْلِ ذاتِهِ فقط ، وهذا خطأٌ بيِّنٌ في مفهومِ الإسلامِ للعَمَلِ ؛ لأنَّهُ ينأى بالمرءِ عَن أداءِ عبادَةِ اللهِ تعالى ، كما شَرَعَ . فيكونُ بذلكَ ليسَ مُبْتَعِداً فَحَسْبُ عَنِ اللهِ سُبحانَهُ

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص٣٠١-٣٠٣.

وتعالى ، وإنَّما أيضاً يبتَعِدُ عَنْ مَصْدَرِ النَّجاحِ ، الَّذي هُوَ ذِكْرُ اللهِ تعالى ، حيثُ يقولُ سُبحانَهُ : ﴿ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الجمعة: ١٠).

وَذِكْرُ اللهِ تعالى يكونُ : بِمُراقَبَتِهِ في كُلِّ تَصَرُّفٍ ، يقومُ بِهِ الإنسانُ ، وفي كُلِّ عَمَلٍ أو تفكيرٍ ، يَهِمُّ بِهِ أوْ ينجُمُ عَنْهُ ، واتِّباعِ هدايتِهِ فيما : تنطوي عليهِ مِنْ أمْرٍ أوْ نَهيٍ .

هذهِ هيَ الرؤيَةُ الحقيقيَّةُ لِدوْرِ المسجِدِ في الإسلامِ ، فقدْ كانَ مركزاً للشُّورى ، ومنهُ تنطلِقُ جحافلُ الجيوشِ للجهادِ في سبيلِ اللهِ تعالى ، ولقاءٌ عامٌّ للمسلمينَ في أفراحِهِم وأتْراحِهِم على السَّواءِ ، ومدرسةٌ للعِلْمِ والفِكْرِ والعَدْلِ ، بالإضافةِ إلى العِبادَةِ والصَّلاةِ فيهِ .

أدركَ «البهيُّ» أهميَّةَ المَسْجِدِ في حياةِ المُسلمينَ ، فَعَمِدَ إلى تنفيذِ خِطَّةِ إصلاحِ المساجِدِ ، إذْ كانَ هَمُّهُ : كيفَ تُصْبِحُ المساجِدُ دورَ عبادَةٍ ، ولقاءٍ للمُسلمينَ . لقاءٌ يَزيدُ في إيمانِ قُلوبِهم باللهِ تعالى» ، فيقولُ : (لا بُدَّ مِنَ العِنايَةِ بالإمامِ في شأنِهِ الوظيفيِّ ، وفي رِعايتِهِ الاجتماعيَّةِ .

[لذا] رَفَعْتُ مُرَتَّباتِ جَميعِ الأئمَّةِ المُعَيَّنينَ بِمُكافآتٍ تَقِلُّ عَنِ الخَمْسَةَ عَشَرَ جُنيهاً ، إلى خَمْسَةَ عَشَرَ جُنيهاً ، بِغَضِّ النَّظَرِ عَمَّا يُسمَّى بِرَيْعِ الْوَقْفِ الخاصِّ ، بالمَسْجِدِ الَّذي ضُمَّ إلى الوزارةِ . ويَزيدُ المُرَتَّبُ خَمْسَةَ جُنيهاتٍ أُخرى ، إذا كانَ الإمامُ يُجيدُ [تِلاوَةَ] وَحِفْظَ القُرآنِ الكريمِ .

وَوُضِعَ نِظامٌ لِتَنْظيفِ المساجِدِ ، وَصِيانَةِ مَنافِعِها ، وتَوفيرِ فَرْشِها . وَجَعَلْتُ صناديقَ النُّذُورِ في المساجِدِ الكُبرى ، مَصْدَرَ تَمْويلٍ لِفَرْشِ جَميعِ المساجِدِ الأُخرى ، الَّتي تقَعُ في مُحيطِ المَسْجِدِ الكَبيرِ ، وَأَحْكَمْتُ الرَّقابَةَ على هذِهِ الصَّناديقِ ، بحيثُ تُؤدِّي النُّذُورُ الَّتي تُوضَعُ فيها ، دَوْراً رئيسيّاً [رئيساً] في المُحافَظَةِ عليها . وَوُضِعَ مشروعُ بناءِ المساكِنِ في القُرى للأئِمَّةِ ، وَقُدِّرَتْ تَكْلِفَتُهُ في المَرْحَلَةِ الأُولى بمبلَغِ ثلاثَةِ أرباعِ المِليونِ جُنيهٍ ، وأُخِذَتْ هذهِ

التَّكلِفَةُ مِنْ مَبْلَغِ ثلاثةِ ملايينَ ونصْفٍ ، جُمِعَتْ مِنْ ميزانيّاتِ الوزارةِ في عَشْرِ سنواتٍ ، مِنْ سَنَةِ ١٩٥٢م إلى١٩٦٢م ، وكانَ هُناك مَبْلَغٌ آخَرُ في حِسابِ البِرِّ ، يُوزَّعُ على المُحافِظِينَ لإحْياءِ رَمَضانَ ، نيابَةً عَنِ الوزارةِ . قَرَّرْتُ أَنْ يُوزَّعَ على الأئمَّةِ في القُرى ، يُنْفِقُونَ مِنْهُ على الزّائِرِينَ لَهُم ، في مَواضِعِ إقامَتِهِم ، في ليالي رمَضانَ ، بَدَلاً مِنْ تَرَدُّدِهِم ، عَلَى عُمَدِ القُرى وأعيانِها .

كما قَسَّمْتُ المساجِدَ إلى ثلاثةِ مُستوياتٍ ، يُخَصَّصُ لِكُلِّ مُستوًى مِنها خُطَباءُ لِلْجُمُعَةِ ، يَرْتَفِعُونَ إلى المُستوى المُعَيَّنِ)[1].

كانَ «البهيُّ» كَثِيرَ الحِرْصِ على تطويرِ وتجديدِ رسالَةِ المسجِدِ ، فأرادَ أنْ تكونَ رسالةُ الأزهرِ ـ على سبيلِ المِثالِ ـ في المعاهِدِ الدِّينيَّةِ هيَ: رِسالَةٌ نوعيَّةٌ ، قَبْلَ أنْ تكونَ كَمِّيَّةً . لذلكَ أنشأَ في كُلِّ قريَةٍ جَمعيَّةً لِتَحْفيظِ القُرآنِ الكريمِ ـ بِمثابَةِ مَعْهَدٍ ابتدائيٍّ ـ يُشْرِفُ عليها إمامُ المسجِدِ بمُكافأةٍ إضافيَّةٍ ، ثُمَّ أنشأَ أيضاً ، معهداً إعْدادياً في كُلِّ مَرْكَزٍ . على أنْ يكونَ في مَقَرِّ عاصِمَةِ المُحافَظَةِ : مَعْهَدٌ ثانويٌّ واحِدٌ ؛ لِكَي تَنْصَهِرَ فيهِ الفُروقُ بينَ المُتَخَرِّجِينَ في المعاهِدِ الإعداديَّةِ ، في كُلِّ مُحافَظَةٍ . على أنْ تكونَ الإقامَةُ فيهِ مَجّانيَّةً ، كما طلبَ توجيهَ عِنايةٍ خاصَّةٍ للقسمِ العِلميِّ ، في المعاهِدِ الثّانويَّةِ ، أملاً في بناءِ ثورةٍ علميَّةٍ ، تواكِبُ روحَ العَصْرِ ، وتُسايِرُ البحثَ العلميَّ ، في توظيفِ تَقنيّاتِهِ الحديثةِ . وفعلاً خُصِّصَتْ مبالِغُ ماليَّةٌ كبيرةٌ ، لإنشاءِ المكتباتِ ، وتوفيرِ الكُتُبِ والمُسْتَلْزَماتِ ، الَّتي يحتاجُها الطُّلابُ المُنتسِبُونَ لِهذا النَّوعِ مِنَ الدِّراسَةِ أوِ التَّخَصُّصِ .

صَوَّبَ [البهيُّ] أوضاعَ الخَلَلِ في جهازِ إدارةِ الثَّقافَةِ ، الَّذي كانَ تابعاً لِوزارةِ الأوقافِ وشُؤونِ الأزهرِ ، قائلا : (إنَّ الاعتِمادَ المُخَصَّصَ لإدارةِ الثَّقافَةِ ، وَهُوَ

---

(١) محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر ، طالب . وأُستاذ . ووزير ، ص٨٤ ، ٨٥ .

[ما يُقارِبُ] عِشرينَ ألفاً مِنَ الجُنيهاتِ في العامِ [الواحدِ كانَ] يُصْرَفُ في عَدَدٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الكُتُبِ ، [حيثُ] ابتَدَعَتْ [تلكَ] الإدارةُ ، ما أسْمَتْهُ بمكتَبَةِ المَساجِدِ . وهِيَ عبارَةٌ عَنْ مخازِنَ في الأضْرِحَةِ ، أوْ في المساجِدِ : تُحْفَظُ فيها الكُتُبُ [الَّتي اشْتُرِيَتْ] ، وكانتْ مكتَبَةُ المساجِدِ ، هِيَ المُبَرِّرُ للشِّراءِ المُتَكَرِّرِ مِنْ نَفْسِ الكُتُبِ ، الَّتي اشتُرِيَتْ في العامِ السابقِ . وقَدْ أوْقَفْتُ صَرْفَ الشِّراءِ في أيِّ كتابٍ ، إلاَّ بَعْدَ العَرْضِ عليَّ)[1].

لَقَدْ شاعَ قَبْلَ عَصْرِ «البهيِّ» وفي أثنائِهِ ـ على أيْدي فِئَةٍ مِنَ العاملينَ في إداراتِ وزارةِ الأوقافِ وشُئونِ الأزهرِ ، لا سيما نَفَرٌ مِنْ أئمَّةِ المساجِدِ ـ ما يُسَمَّى بالرُّقى والتَّمائمِ[2]، وشِفاءِ الأمراضِ ، والعرَّافينَ : الَّذينَ يَدَّعُونَ مَعْرِفَةَ الغَيْبِ ، فَيُبَشِّرونَ النّاسَ بقضاءِ مَصالِحِهِم . كَما انتشَرَ طَوافُ كثيرٍ مِنَ العَوامِّ ، حَوْلَ بَعْضِ الأضْرِحَةِ ـ بما لا يجوزُ إلاَّ للكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ في بيتِ اللهِ الحرامِ ـ طالِبينَ إليهِم حوائجَهُم ؛ لاعتقادِهِم بأنَّهُم يَنفعُونَ ويَضُرُّونَ ، ويَقْدِرُونَ على كُلِّ شيءٍ وهُمْ في قُبورِهِم . إنَّهُ نوعٌ مِنْ أنواعِ الشِّرْكِ باللهِ سُبحانَهُ وتعالى .

ثُمَّ تمادى الأمرُ ، وتفاقَمَ الوضْعُ ، حتّى اشْتَرَكَتْ فيهِ : (النّساءُ مِنْ مُدَّعِياتِ الوِلايةِ ، وقَدْ ارْتَفَعَ عَنْهُنَّ بُرْقُعُ الحَياءِ ، [حيثُ] يَقُمْنَ بأعمالَ فاضِحَةٍ ، [كالاختلاطِ] بالرِّجالِ ، والمَبيتِ في المساجِدِ ، والعَزْفِ والتَّطريبِ ، وَدَقِّ الطُّبُولِ في [حَلَقاتِ] الذِّكْرِ ، وادِّعاءِ العَرافَةِ والدَّجَلِ والتَّمْويهِ ، والتَّشْويشِ على

(١) محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر ، طالب . وأُستاذ . ووزير ، ص١١٥ ، ١١٦.

(٢) الرُّقى والتَّمائِم : الرُّقى : مُفردُها رُقْيَةٌ ، وهيَ : أنْ يُستعانَ للحُصول على أمرٍ بِقُوًى ، تفوقُ القُوى الطَّبيعيَّةِ ، في زَعْمِهِم أوْ وَهْمِهِم وأمّا التمائِمُ أو التَّميمُ ، هيَ : العُوَذُ . واحدتُها تَميمةُ . والتَّمائِمُ : خَرَزٌ تُثْقَبُ وَيُجْعَلُ فيه سُيورُ وخُيوطُ تُعَلَّقُ بها ؛ لِتُتَخَذَ عُوَذاً . انظر ، محمد بن مكرم بن منظور : لسان العرب ، ٢/٥٤ ، ٥٥.

المُصَلِّينَ ، والطَّوافِ حَولَ القُبُورِ ، وتَقبيلِ مقصُورةِ بَعضِ المقبُورينَ ، [ثُمَّ تَركِ القَاذورَاتِ] في المَسْجِدِ وتنْجيسِهِ)[1].

وفي الأصْلِ : يَجِبُ أنْ تبقى للمسجدِ قُدسيَّتُهُ ، وللصَّلاةِ أثَرُها ، ولِذِكْرِ اللهِ تعالى فِعْلُهُ ، لِذا ينبغِي ألاَّ يُذْكَرَ فيهِ أيُّ موجودٍ ، ما خلا اللهَ تعالى . فلا يُشْرَكُ في المساجِدِ مَعَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى غيرُهُ ، مِنْ إنسانٍ مَهما كانَ وضْعُ الَّذي يُذْكَرُ اسمُهُ ، ومهما كانتْ صلاحيَّتُهُ ؛ وذلكَ لأنَّ الصَّلاةَ هيَ : العِبادَةُ الَّتي تُعَدُّ لَها الأرضُ كُلُّها مَسْجِداً ، تُقامُ فيهِ . فليسَ أداؤُها مُرتبطاً بِمكانٍ مُعَيَّنٍ ، أوْ بيتٍ خاصٍّ تُقامُ فيه . وهيَ العِبادَةُ الَّتي يؤَذَّنُ لَها بإعلانِ الشَّهادَةِ بأنَّهُ : لا إلهَ إلاَّ اللهُ ، ويتَكَرَّرُ هذا النِّداءُ خَمْسَ مَرَّاتٍ في اليومِ الواحِدِ ، وتَصْطَحِبُ كُلَّ حرَكَةٍ ، مِنْ حَرَكاتِها : في القِيامِ فيها ، والرُّكوعِ ، والسُّجودِ : بالإقْرارِ بأنَّهُ سُبحانَهُ وتعالى : «اللهُ أكبرْ» . فَلَو ذُكِرَ أيُّ إنسانٍ ، بجانبِ اللهِ تعالى ، في بيتِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، مِنْ شأنِهِ : (أنْ يَصْرِفَ قليلاً أوْ كثيراً ، التَّركيزَ على تَصَوُّرِ الحقيقَةِ النَّفسيَّةِ لوحْدَةِ اللهِ سُبحانَهُ . ثُمَّ عَلَى [توثيقِها] في نُفُوسِ المؤمنينَ .

فالشِّركُ باللهِ ليسَ إلاَّ رَفْعُ ما عَدا اللهَ ، في مُستَوى جَلالِ اللهِ وقُدْسيَّتِهِ ، وليسَ أيضاً إلاَّ صَرْفُ القُلُوبِ ، وإبْعادُ أعماقِ النُّفوسِ ، عَنْ أنْ تَعيَ الحقيقَةَ الإلهيَّةَ ، وعياً كاملاً وواضحاً .

وبذلكَ يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (النور:٣٦-٣٨).

---

(١) رشيد رضا : مجلة المنار ، بتاريخ ١٢-١٩ أبريل ١٨٩٨م .

هذا هُوَ وَضعُ بيتِ اللهِ تعالى [المَسْجد] ، كما وضَّحَهُ اللهُ تعالى في آياتِهِ ، وهؤُلاءِ هُمُ المؤمنونَ الَّذينَ وُعِدوا بالنَّصْرِ أبداً ، على شَهَواتِهم وعَلَى أهْوائِهم وأعدائِهم ، وهذهِ هيَ الصَّلاةُ الَّتي أَعَدَّتْهُم للنَّصرِ ، وهذا هُوَ ذِكْرُ اللهِ سُبحانَهُ ، الَّذي زادَ في طاقَاتِهم ، على التَّغَلُّبِ على صِعابِ الحياةِ [ومَشقّاتِها] .

بهذا تكونُ الصَّلاةُ ذاتُ صلاحيَّةٍ فَعّالَةٍ ، وَعَميقَةٍ في تَجْرِبَةِ المُصَلّي في صِلَتِهِ باللهِ تعالى ، وعِبادَتِهِ إيّاهُ وَحْدَهُ . وبالتّالي : ذاتُ أثَرٍ قَويٍّ في تَحْويلِ النَّظْرَةِ الإسلاميَّةِ ، إلى الماديَّةِ والشِّرْكِ ، إلى حقيقَةٍ نفسيَّةٍ ، يَصْدُرُ عنها المؤْمِنُ في الابْتعادِ عَنها ، والرُّكُونِ إلى اللهِ تعالى وحدهُ ، فوقَ المُتَعِ الحسيَّةِ ومُغْرَياتِها .

فالصَّلاةُ في رُوحيَّتِها تُركِّزُ على وِحْدَةِ الأُلوهيَّةِ ، وهيَ ضَرورةٌ لازِمَةٌ للمؤْمِنِ ، الَّذي يُريدُ أنْ يكونَ لإيمانِهِ فاعليَّةٌ في سُلُوكِهِ ، وفي علاقاتِهِ ، وحياتِهِ على العُمومِ ، وكذلكَ في تَحَوُّلِ إيمانِ الأُمَّةِ والجماعَةِ ، إلى سُلوكٍ مُستَقيمٍ ، وعلاقاتٍ طَيِّبَةٍ ، بالانتهاءِ عَنِ الفحْشاءِ والمُنْكَرِ (١) .

اعتقَدَ «البهيُّ» أنَّ إصلاحَ المَسجِدِ ، الَّذي تُقامُ بِهِ الصَّلواتُ الخمسُ جماعةً ، كاملةً بخشوعٍ وخُضُوعٍ للهِ تعالى ، [مِنْ شأنِها أنْ] يُقصَدَ [فيها] إخراجُ الفَرْدِ مِنْ عُزْلَتِهِ الرُّوحيَّةِ ، إلى مُستوى روحيَّةِ الجماعَةِ ، حتَّى يكونَ أثرُها مُضاعَفاً ، فَتَستَقِرَّ في نَفْسِ المؤْمِنِ ، حقيقتان نفسيَّتان ، هُما : حقيقةُ الإيمانِ باللهِ وحْدَهُ ، وحقيقةُ الجماعةِ ، مِمّا سَيُكَوِّنان أثراً مُزْدَوَجاً ، على تَجَنُّبِ الماديَّةِ ، الَّتي هيَ سبيلُ الشِّرْكِ ، وعلى عَدَمِ خُضُوعِ الذَّاتِ الإنسانيَّةِ للشَّهْوةِ والهَوى ، ذلكَ الخُضُوعُ الَّذي يُمَثِّلُ أنانيَّةَ الذَّاتِ مِنْ جِهةٍ ، والبُعْدَ عَنْ الرُّوحِ الجماعيَّةِ مِنْ جِهَةٍ أُخرى .

لِهذا تُعتَبَرُ الصَّلاةُ عِمادَ الدِّينِ . (وللأهميَّةِ الكُبرى لَها ، إذْ يَنْصَحُ القُرآنُ الكريمُ ، في كَثيرٍ مِنَ المَواطنِ بأمرٍ ، أوْ بعبادَةٍ أُخرى ، في مَقامٍ يَتطَلَّبُ النُّصْحَ

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص ١٧١ .

بِهذا الأمرِ ، أوْ بهذهِ العِبادَةِ ، لِوجُودِ عَلاقَةٍ مُباشِرَةٍ ، بينَ مَقامِ الحالِ ، [وبينَ] هذا الأمرِ أو هذهِ العِبادَةِ . . . فإنَّهُ كثيراً : ما يُضيفُ الصَّلاةَ في النُّصْحِ ، إلى الأمْرِ الخاصِّ ، أوْ إلى العِبادَةِ الخاصَّةِ ، الَّتي نَصَحَ بها ، يقُولُ اللهُ تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾

(البقرة:١٥٣-١٥٧).

فالمجالُ هُنا : هُوَ مجالُ العَرْضِ لِمَوْقِفِ الكافرينَ ، في عِنادِهِم ، وفي تآمُرِهِم على الدَّعْوَةِ ضِدَّ المؤمِنينَ . ووَضْعُ المؤمنينَ الآنَ يَتطَلَّبُ : التَّحمُّلَ والصَّبْرَ ، سواءٌ على إيذاءِ الكافرينَ لَهُم ، أوْ على رَفْضِهِم لِنداءِ الرَّسولِ ﷺ ، أوْ لِلشَّدائِدِ الَّتي يُلاقونَها في القِتالِ ، تلكَ الشَّدائِدُ الَّتي قَدْ يَترتَّبُ عليها : النَّقْصُ في الأموالِ والثَّمَراتِ والأنْفُسِ . كما يَترتَّبُ عليها : الخوفُ والقَلَقُ ، ولكنْ مَعَ النُّصحِ بالصَّبْرِ ، في قَولِهِ تعالى : ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ . فإنَّ القُرآنَ عندما طَلَبَ مِنَ المؤمنينَ ، أنْ يَستعينُوا بالصَّبْرِ ، أضافَ إلى الاستعانَةِ بهِ ، الاستعانَة بالصَّلاةِ أيضاً) [١].

إنَّ مفهومَ إصلاحِ المساجدِ عندَ «البهيِّ»، يَنْبُعُ مِنْ اعتبارِها ، مراكِزُ الإسلامِ ، فعمارَتُها : بناءً مادياً ، وروحياً معنوياً تعني : رَمْزُ ارتباطِ المُسلمِ بإسلامِهِ والمُسلمينَ ، وهيَ الَّتي تُعطي المؤمِنَ ، يَقَظَةَ الإيمانِ الدَّائمَةِ ، عِندَما يستَشْعِرُ لقاءَ اللهِ تعالى ، والرُّجوعَ إليهِ في صلاتِهِ .

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص ١٦٣ .

يَلفِتُ «البهيُّ» نظَرَ المؤمنينَ إلى إدراكِ قَضيَّةٍ هامَّةٍ ، في إصلاحِ الأفرادِ والمُجتمعاتِ الإسلاميَّةِ ، استوحاها مِن اختيارِ اللهِ تعالى ، لأوَّلِ بيتٍ وُضِعَ في الأرضِ ، ألا وهيَ الكعبةُ المُشرَّفَةُ ؛ لإفرادِهِ في التّوحيدِ والعِبادَةِ ، ثُمَّ إنَّ أوَّلَ عَمَلٍ قامَ بهِ الرسولُ ﷺ ، بعدَ الهجْرَةِ إلى المدينةِ المُنَوَّرةِ ، هُوَ بناءُ المَسجدِ ، كذلكَ بدايةُ رحلةِ الإسراء والمِعراجِ ونهايتُها : ابتدأت مِنَ المسجدِ الحرامِ إلى المسجد الأقصى ، إلى السمواتِ العُلا ، ثمَّ بالعَودَةِ إلى نُقْطَةِ البدايةِ ، إلى بيتِ اللهِ الحرامِ ، فكانتْ مِنْ مكانِ عبادةٍ إلى مكانِ عبادةٍ أُخرى .

وفي هذا لفتةٌ فريدةٌ وكبيرةٌ ـ لِمَنْ أرادَ أنْ يَعقِلَها مِنَ المُسلمينَ ـ تكشِفُ أهميَّةَ المساجِدِ ودورِها ، في صَقْلِ النُّفوسِ ، وتهذيبِ تربيتِها ، ووحْدَةِ توجيهِها ، وتَجديدِ يقْظَتِها ونشاطِها ، وقدْ نبَّهَ الرّسولُ ﷺ إلى ذلكَ ، حيثُ أمَرَ بالسَّفَرِ وشَدِّ الرحالِ إلى ثلاثةِ مساجِدَ ، كما ورَدَتْ في الحديث الشَّريفِ : عنْ أبي سعيدٍ الخُدريِّ ، رضيَ اللهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «لاَ تُشَدُّ الرِّحالُ إلاَّ إلى ثَلاثةِ مساجِدَ : المسجدِ الحرامِ ، ومسجدِي هَذا ، والمسجدِ الأقصى»[1].

بالوقُوفِ عندَ هذا الحديثِ ، يَتَّضِحُ : أَنَّ رسالَةَ القُرآنِ الكريمِ أيضاً ، تُشيرُ إلى علاقةِ الارتباطِ ، بينَ هذهِ المساجدِ الثلاثةِ .

فإنَّ ما في القُرآنِ [المجيدِ] مِنْ وحيٍ مَكّيٍّ ـ وَهُوَ الوحْيُ الخاصُّ بِمُواجَهَةِ الوَثَنيَّةِ الماديَّةِ ـ يَتَّصِلُ بالمَسجِدِ الحرامِ بِمكَّةَ ، وكأنَّ زيارةَ المسجدِ الحَرامِ ، وشَدَّ الرِّحالِ إليهِ ، تُعيدُ إلى ذاكرَةِ المؤمنِ باللهِ تعالى ، وبرسالَةِ المُصطَفى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : مواجَهَةَ القُرآنِ [الكريمِ] للماديَّةِ أوِ الجاهليَّةِ ، أوِ الشِّرْكِ والوثَنيَّةِ .

---

(١) محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي : مختصر سنن الترمذي ، اختصره وشرح جُمله وعلّق عليه ، مصطفى ديب البغا ، رقم الحديث «٣٢٦» ، ص٤٣ .

وما في القُرآنِ أيضاً مِنْ وَحْيٍ مَدَنِيٍّ : يَتَّصِلُ بِمَسجدِ المدينةِ ، وكأَنَّ زيارةَ المسجدِ النَّبويِّ ، تُذَكِّرُ المؤمِنَ باللهِ تعالى أيضاً ، وبرسالةِ المُصطفى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : بالأُسسِ الَّتي قامَ عليها ، نِظامُ المُجتمَعِ الإسلاميِّ . وما في الوحيِ المدنيِّ مِنَ القُرآنِ الكريمِ ، وبالأخَصِّ الكثيرُ مِمّا جاءَ في سورةِ البقرةِ ، وآلِ عمرانَ ، والمائدةِ ، يُشيرُ إلى صِلَةِ المسجدِ الأقصى ، بالحَرَمَيْنِ الشَّريفَيْنِ ، بمكَّةَ المُكَرَّمَةِ والمدينةِ المُنَوَّرةِ مِنْ جِهَةٍ . وكأَنَّ زيارةَ المسجدِ الأقصى ، مِنْ جِهَةٍ أُخرى ، تُوحي للمؤْمنِ باللهِ [سُبحانَهُ وتعالى]، وبرسالةِ سيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ ، بمكانةِ القُرآنِ [العظيمِ] ، ووضْعِهِ مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّةِ السَّابقةِ . وهيَ مكانةُ الزِّيادَةِ ، وَوَضْعُ المُصَحِّحِ لِما طَرأَ عليها مِنْ تَحْريفٍ ، أو تَصْحيفٍ ، أوْ حَذْفٍ وإخْفاءٍ . وَقَدْ عايشَ الرَّسولُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ المسجدَ الحرامَ بمكَّةَ ، والمسجِدَ النَّبويَّ بالمدينةِ ، وأُسريَ بِهِ إلى المسجدِ الأقصى بالقدسِ ، في فلسطينَ ، وهُناكَ أَمَّ النَّبيينَ في الصَّلاةِ ، فهذا فَضْلٌ مِنَ اللهِ تعالى على رسولِهِ ، عليهِ السَّلامُ ، ومِنَّةٌ خاصَّةٌ بِهِ ، مِمّا يَدُلُّ على أَنَّ رسالةَ القُرآنِ ، كانتْ خِتامَ الرِّسالاتِ السَّابقَةِ . إذْ هيَ الآنَ تُقَدِّمُ إحاطَةً شاملَةً ، وإظهاراً مُحَدَّداً للرسالةِ الإلهيَّةِ : ما مَضَى مِنها ، وما هُوَ قائمٌ ، وباقٍ إلى يومِ البَعْثِ . في الوقْتِ الَّذي تُقَدِّمُ فيهِ كذلكَ : كيفَ يُواجِهُ الإنسانُ المادِّيَّةَ . . وكيفَ يُقيمُ الإنسانُ مُجْتَمَعاً إنسانيّاً ، تَغْلِبُ عليهِ الرَّوابطُ الإنسانيَّةُ . . وكيفَ يُواجِهُ الإنسانُ ، انحرافَ السَّابقينَ في عَرْضِ رسالةِ اللهِ للإنسانِ في عُهودِ الرِّسالةِ المُختلفَةِ)(1).

الإسلامُ هو دينُ الرِّسالةِ الشَّاملَةِ والخاتِمَةِ ، لَهُ آثارُهُ البعيدَةُ المدى على البشريَّةِ كُلِّها ، ولَهُ الحُجَّةُ ضِدَّ الزُّعماءِ ، الَّذين أرادُوا أَنْ تمتدَّ زعامَتُهُم ، على حسابِ بقاءِ التَّحريفِ ، في رسالةِ اللهِ تعالى ، بعدَ أن ادَّعَوا أَنَّهُم حَمَلَتُها ، وأهلُ الأمانةِ لَها ، وهُم مَنْ يُطلِقُونَ على أنْفُسِهِم ، أهْلَ الكتابِ زوراً وبُهْتاناً .

---

(1) محمد البهي : التفسير الموضوعي للقرآن «تفسير سورة الإسراء»، مكتبة وهبة ، ط١ ، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م ، ص ٥-٧ .

بهذا الفَهمِ الشاملِ للإسلامِ ، أحبَّ «البهيُّ» أنْ تكونَ رسالةُ التطويرِ والإصلاحِ ، في المساجِدِ شاملَةَ التَّخطيطِ ، لجميعِ اتجاهاتِ حياةِ الإنسانِ ، وأنْ يؤدِّيَ المؤمنُ رِسالتَهُ ، في وعيٍ تامٍّ ، وإلاَّ يتخلَّى عنْ إرادَتِهِ ووظيفتِهِ العالَميَّةِ ، الَّتي يستَمِدُّها مِنْ إنسانيَّةِ تعاليمِ دينِهِ ، وفي المُقابلِ ، فإنَّ اللهَ تعالى ، يَعِدُ المؤمنينَ (بالدِّفاعِ عَنهُم ، والوقُوفِ بجانِبِهِم ، ونَصْرِهِمُ الحَتميِّ ، وهُم أُولئِكُمُ الَّذينَ ، إنْ تَمَكَّنوا في الأرضِ ، أقامُوا الصَّلاةَ ، وآتَوُا الزَّكاةَ ، وأَمَرُوا بالمَعْرُوفِ ، وَنَهَوا عَنِ المُنْكَرِ . وبذلكَ يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (الحج:٣٨-٤١).

يَعِدُ اللهُ تعالى المؤمنينَ هُنا ، بالنَّصرِ مَرَّةً ، كما يَعِدُهُم بزيادَةِ الفَضْلِ وسَعَةِ الرِّزْقِ مَرَّةً أُخرى . إنْ لَمْ تَصرِفْهُمُ التِّجارَةُ ، بالبيعِ والشِّراءِ ، عَنْ مُباشَرَةِ الصَّلاةِ في وَقْتِها ، وإيتاءِ الزَّكاةِ في حينِها) [(١)].

المسجِدُ والصَّلاةُ : بِما لَهُما مِنْ عناصِرِ التأثيرِ ، سواءٌ بفعْلِ صيغَةِ الدُّعاءِ ، أوْ بِلَحظَةِ اللِّقاءِ النَّفْسِيِّ والتَّصَوُّرِيِّ فيهِما ، مَعَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، أوْ بِتَكْرارِ وتَقارُبِ الدُّخولِ إليهِما ، حيثُ يُقَرِّبانِ المؤمِنَ إلى اللهِ تعالى ، وبالتَّالي يُوَصِّلانِ تثبيتَ ، مفهومِ الإيمانِ بوحْدَةِ الأُلوهيَّةِ ، في نُفوسِ المؤمنينَ ، وتَجْعَلانِ هذا المفهومَ مَدلولاً واقعيًّا ، وحَقيقةً مُستَقِرَّةً .

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص١٦٧ .

كما أنَّهما يُساعِدانِ مَنِ اقْترَنَ بهما ، قولاً وعَملاً ونِظامَ حياةٍ ، على : الانتهاءِ عَنِ الفحشاءِ والمُنكَرِ ؛ نَظَراً للجُرُعاتِ الإيمانيَّةِ المُتكرِّرَةِ ، الَّتي مِنْ شأنِها أنْ تُنهيَ الاندفاعَ ، نَحْوَ تأثيرِ الهَوى والشَّهْوةِ .

هذا وقَدْ أشارَ القُرآنُ الكريمُ ، إلى أنَّ إقامةَ وأداءَ الصَّلاةِ ، تعملانِ على إصلاحِ الفردِ والمُجتَمعِ ، ويُكوِّنانِ أدواتِ التطوُّرِ والتَّقدُّمِ الإيجابيِّ ، في الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ ؛ لأنَّهُ : مِنْ شأنِهما أنْ يُبعِدانِ صاحِبَهُما عنِ الفحشاءِ والمُنْكَرِ .

يقولُ اللهُ تعالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٥) .

عندَ إهمالِ المُسلمينَ لرسالةِ المسجدِ ، في التَّربيةِ السُّلوكيَّةِ الإيمانيَّةِ الحقيقيَّةِ ، والتَّلكؤِ في مُباشَرَةِ الصَّلاةِ ، حتَّى ينتهيَ الأمْرُ إلى ضَياعِها ، فإنَّهُ : يؤدِّي إلى انتشارِ الشَّهواتِ المُحَرَّمةِ ، وشُيوعِ المُنكراتِ والانحرافاتِ ، فتحيى الأُمَّةُ حياةَ البهائمِ ، وينتشِرُ الجَهْلُ والمَرَضُ ، ويَعُمُّ التَّخلُّفُ والتَّبعيَّةُ والشَّقاءُ .

يقولُ اللهُ تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ (مريم:٥٩،٦٠).

يستطيعُ الباحثُ المُنصِفُ أنْ يقولَ : بأنَّ «البهيَّ» قَدْ وَضَعَ يَدَهُ على جُرْحِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ النَّازفِ الآنَ ، عندما اعتبرَ العَوْدَةَ إلى المسجِدِ والصَّلاةِ ، رُكْنَيْنِ أَصِيلَيْنِ في الإصلاحِ والحَداثَةِ والتَّقدُّمِ ، وإنَّ النُّكوصَ عَنْهُما أوْ إقصاءَهُما ، لا سيَّما الصلاة ، يَقْتَرِنُ : (باتِّباعِ الشَّهواتِ والمُنكَرِ ، [كما] تَقُصُّهُ الآيةُ القُرآنيَّةُ [الكريمةُ الآنِفُ ذِكرُها] في الحديثِ عَنِ الأجيالِ ، الَّتي خَلَفَتِ الأنبياءَ ، مُنْذُ إبراهيمَ عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ ، حَتَّى رسالةِ سيِّدِنا مُحَمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ ﷺ . . . فالخَلَفُ الَّذي كانَ يُهمِلُ في أداءِ الصَّلاةِ حتَّى يُضَيِّعَها . وبالتَّالي كانَ يَسْقُطُ ،

في التَّبَعِيَّةِ إلى الشَّهَواتِ وانْحِرافاتِها ، ويُنْذِرُ بتغييرِ المُجتَمَعِ كُلِّهِ [وانهيارِهِ] . بعدَ وقوعِهِ في الشِّرْكِ باللهِ تعالى ، والعَمَلِ السُّوءِ ، [وحَمْأَةِ] الشَّهواتِ والشَّقاءِ)[1].

العبادةُ في الإسلامِ ، ليستْ شعائرَ مُجرَّدةً ، إنَّما هيَ : نيَّةٌ واتِّجاهٌ ، نشاطٌ وحَرَكَةٌ ، تطوُّرٌ وإصلاحٌ ، عَمَلٌ مُتواصِلٌ ، جِدٌّ واجتهادٌ . بلْ مَنهَجٌ كاملٌ للحياةِ ، يَعيشُ الإنسانُ وفْقَهُ ، وَهُوَ يَسْتَشْعِرُ في كُلِّ صَغيرةٍ وكَبيرَةٍ ، طِوالَ حياتِهِ أنَّهُ يَعْبُدُ اللهِ سُبْحانَهُ وتعالَى ، فَيَرْتَفِعُ في كُلِّ نَشاطِهِ ، إلى مُستوى العِبادَةِ وأُفُقِها السّامِقِ ، الطّاهِرِ الوضّاءِ .

أمّا البعيدونَ عَنِ اللهِ تعالى ، التّارِكُونَ للصَّلاةِ ، الجاحِدونَ لِشَرْعِيَّتِها ، السّاعُونَ إلى تَخريبِ بيوتِ اللهِ تعالى ، أي المساجِدِ ، والمُسْتَغرِقُونَ في الشَّهَواتِ ، فإنَّ السِّياقَ القرآنيَّ : يتَهَدَّدُهم بالشُّرودِ والضَّلالِ ، وتكونُ عاقبةُ الشُّرودِ : الضَّياعُ والهَلاكُ .

وأمّا الأتقياءُ المُصَلُّونَ ، الَّذينَ يَعْمُرونَ مساجِدَ اللهِ ، كَيفاً وليسَ كَمّاً فَحَسْبُ ، فَهُمْ يمتازُونَ بِحَساسيَّةِ الخُشوعِ للهِ تعالى ؛ لأنَّهُم أصْحابُ القُلوبِ الوَجِلَةِ ، بِذِكْرِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى ، التّائبونَ إليهِ .

فإنَّ التَّوبةَ : تُنشئُ الإيمانَ والعَمَلَ الصّالِحَ ، الَّذي يُؤَهِّلُهُم لِخِلافَةِ اللهِ تعالى في الأرضِ ، إصْلاحاً وعِمْراناً ، في جميعِ مجالاتِ الحياةِ . عندئذٍ تُحَقِّقُ التَّوبةُ لأصْحابِها ، المدلولَ الإيجابيَّ الواضِحَ ، في النَّصِّ القُرآنيِّ : فلا يَلْقَى أتْباعُها إلاّ الجنَّةَ ، دارَ إقامَةٍ دائمَةٍ لَهُم .

• • •

---

(١) محمد البهي : الدين والدولة «من توجيه القرآن الكريم» ، ص١٦٢ .

المبحثُ الرّابعُ

الإصلاحُ في المناهجِ التَّعليميَّةِ

استَشْعَرَ «البهيُّ» خَطَرَ الفِكْرِ الاستعماريِّ الثَّقافيِّ ، عندما تولّى «دانلوبُ»(١) وأعوانُهُ : أجْهِزَةَ الإشْرافِ على التَّعليمِ والتَّوجيهِ ، في مِصْرَ . إذْ كانتْ رِسالتُهُم تستهدِفُ : الضَّغْطَ على الثَّقافةِ الإسلاميَّةِ ، في برامجِ المدارِسِ ، وفي الوظائِفِ الحُكوميَّةِ ، بلْ في حياةِ المُجتَمَعِ الإسلاميِّ كُلِّهِ . حيثُ تَمَّ تطبيقُ ما يُسمَّى : دَعوى ازدواجُ التعليمِ ، في نَوعَيْنِ ، هُما :

١- التعليمُ المَدَنيُّ : أطْلَقُوا عليهِ اسمَ التَّعليمِ التَّقدُّميِّ ؛ لِذلكَ فإنَّ صاحِبَ الثَّقافةِ المدنيَّةِ

- كَما يَزْعُمُونَ - هُوَ الأجْدَرُ بالوظائِفِ ، لاسيّما الحُكُوميَّةِ مِنْها .

٢- التَّعليمُ الدِّينيُّ : نَعَتُوهُ بالتَّعليمِ الرَّجْعيِّ . وأمّا صاحِبُ الثَّقافةِ الدِّينيَّةِ ، فَهُوَ نَفْسُهُ لا يَصْلُحُ للحياةِ ، في نَظَرِ هذا المَنْطِقِ المِعْوَجِّ ، فَضْلاً عَنْ أنْ يُنْتَظَرَ مِنْهُ ، أنْ يُسْهِمَ في دَفْعِ الحياةِ إلى الأمامِ . وَظَهَرَتْ لَدَى أصحابِ الثَّقافَةِ (المدَنيَّةِ ، أيْ اللادينيَّةِ ، واللاإسلاميَّةِ : نَزْعَةُ التَّجديدِ الإسلاميِّ ، وتحديدُ غايَتِها في وضُوحٍ :

---

(١) دانلوب : هو قسيس من أصل إنجليزيٍّ ، تولى مهمةَ الإشراف على التعليم الرّسمي ، في مصرَ ، أيام الحكم البريطانيِّ ، من أجلِ الضغط على الثقافة الإسلاميّة واللُّغة العربيّةِ ، بدعوى أنَّ التّشدُّدَ بهما ، نكسَةٌ ورجعيّةٌ . انظر ، محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص٩٢ ، ٩٣ .

- في مُحاولَةِ المُلاءَمَةِ [الموائَمَةِ] بينَ العِلْمِ والدِّينِ . ـ وفي إعادَةِ امتحانِ أُسسِ العقيدَةِ واختبارِها ، في ضوءِ الفكرِ الغربيِّ الحَديثِ .

ولَمْ يَفُتِ الاستعمارُ الغربيُّ ، أنْ يُبَشِّرَ بفكرَةٍ جديدَةٍ ، تبدو بعيدَةً عَنِ الإسلامِ وتعاليمِهِ ، لكنَّها مُتَصِلةٌ بِهِ اتِّصالاً وثيقاً . . . فإنْ نَجَحَتْ هذهِ الفِكْرَةُ ، كانتْ وسيلةً أُخرى ، لِفَصْمِ المُسلمِ عَنْ إسلامِهِ ، أوْ إضْعافِ اعتقادِهِ بِهِ ، وإنْ لمْ تنجحْ ، فَقَدْ خَلَقَتْ جَوًّا مِنَ التَّوتُرِ بينَ المُسلمينَ ، وبالتّالي أَحْدَثَتِ اهتزازاً لِماضي المُسلمينَ!!

أمَّا الفِكْرَةُ ، فهِيَ : كِتابةُ العربيَّةِ ، بالحُرُوفِ اللاتينيَّةِ ـ كما فَعَلَتْ تُركيا . . . وَفِكْرَةُ نَشْرِ الثَّقافَةِ الخَفيفَةِ . . . وَفِكْرَةُ اللُّغةِ العاميَّةِ ، في أُسلوبِ الكِتابَةِ ، وفي أحاديثِ الإذاعَةِ ، وفي مقالاتِ الصُّحُفِ .

كُلُّ هَذا . . . بِدعوى أنَّ ذلكَ يُجاري الواقِعَ مِنْ جِهَةٍ ـ كما يَزْعُمُ الإنجليزُ ـ أوْ يدْعو إلى تَخْفيفِ الانفصاليَّةِ ، بينَ الشَّرْقِ والغَرْبِ مِنْ جِهَةٍ أُخرى) [(١)].

إنَّ الدَّعْوةَ المشبوهةَ هذهِ ـ في تجديدِ الإسلامِ ـ تقومُ على تدميرِ اللُّغَةِ العربيَّةِ والإسلامِ مَعاً ، وَوَضْعِ حِجابٍ كَثيفٍ ، بينَ ماضي الشُّعوبِ الإسلاميَّةِ ـ في تاريخِها وكِفاحِها وإسلامِها وفُتُوحاتِها ـ وبينَ حاضِرِ هذهِ الأُمَّةِ الواحِدَةِ ، حتَّى لا تستطيعَ أنْ تَستَنِدَ إلى ذلكَ الماضي ، يومَ أنْ يُعتَدَى عليْها ، أوْ تُسْلَبَ حُقُوقُها .

ثُمَّ ظَهَرَ في مِصرَ مُجَدِّدونَ ، كما نشأ مُحيطٌ مَدَنيٌّ في التَّفكيرِ : (صُوِّرَ على أنَّهُ «التَّجديدُ» . وَهُوَ [في واقِعِ الحالِ] مُحاولَةُ أخْذِ الطَّابَعِ الغربيِّ ، والأُسلوبِ الغربيِّ في تفكيرِ الغربيِّينَ ، سواءٌ في تعبيرِهِم عَنِ الدِّينِ ، أوْ في تَحديدِهِم لِمفاهيمِهِ ومفاهيمِ الحياةِ الّتي يعيشُونَها ، أو في تَقديرِهِم للثَّقافاتِ الشَّرقيَّةِ الدِّينيَّةِ والإنسانيَّةِ ، والاستعاضَةِ بالنِّظامِ الغربيِّ «للقانونِ» عنِ الشَّريعَةِ

---

(١) محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص٩٤ ، ٩٥ .

الإسلاميَّةِ . [حتّى أنَّ طه حسين] صاحبَ مُستَقْبلِ «الثّقافةِ في مِصْرَ». يَذْهبُ في طَلَبِ الأخْذِ عَنِ الغَرْبِ ، وسُلُوكِ طَريقِهِم في البَحْثِ والتّعليم . . . . ويَرى أنَّ ما سَلَكَهُ الغَرْبُ ، يَجِبُ أنْ تَسْلُكَهُ مِصْرُ ، في طَريقِها التَّجديديِّ)[1].

تبنّى بعضُ أدعياءِ الفِكْرِ والثّقافةِ والعِلمِ الغَربيِّ في مِصْرَ ، الدَّعْوةَ إلى العَلْمانيَّةِ ، وتمادَى آخرونَ في مُهاجَمَةِ اللُّغةِ العربيَّةِ ، والتَّربيَةِ الإسلاميَّةِ . خِدْمَةً وإرضاءً : لاتِّجاهِ المادِّيِّينَ العَلْمانيِّينَ والمُستَشْرِقينَ ، الّذينَ يَدْعُونَ إلى فَصْلِ الدِّينِ عَنِ الدَّولةِ ، في مَجالِ التَّنفيسِ الصَّليبيِّ ، باسمِ البحثِ العلميِّ ، والمَعْرِفَةِ العقليَّةِ .

إنَّ ـ مِنَ الأدلَّةِ إلى مِصْداقِيَّةِ ما ذهَبَ إليهِ البحْثُ ، في هذا المقامِ ـ التَّصريحَ المَسمُومَ التالي ، إذْ يقُولُ فيهِ كاتبُهُ : (إنَّ تطوُّرَ الحياةِ الإنسانيَّةِ ، قَدْ قَضَى مُنذُ زَمَنٍ بَعيدٍ ، بأنَّ وِحْدَةَ الدِّينِ ووِحْدَةَ اللُّغةِ ، لا تَصْلُحانِ أساساً للوحْدَةِ السياسيَّةِ ، ولا قِواماً لِتَكوينِ الدُّولِ . والمُسلمونَ مِنْ أجلِ هذا ـ [كما يَزْعُمُ] ـ فَطِنُوا مُنذُ عَهْدٍ بعيدٍ ، إلى أنَّ السِّياسَةَ شيءٌ والدِّينَ شيءٌ آخرُ ، وإنَّ نِظامَ الحُكمِ وتكوينَ الدُّولِ : إنَّما يقومانِ على المنافعِ العمليَّةِ ، قبلَ أنْ يقوما على شيءٍ آخَرَ ، وهذا أصلٌ مِنْ أُصولِ الحياةِ الحديثَةِ . . . وعلى كُلِّ حالٍ . . . إنَّ التَّجديدَ : هُوَ أخذُ كُلِّ ما عِنْدَ الغربيينَ مِنْ فِكْرٍ ، ومَنْهَجٍ للبَحْثِ ، وحَضارَةٍ ، وعاداتٍ ، وتقاليدَ ، في فصلِ الدِّينِ عَنِ السياسَةِ . والأساسُ الَّذي قامَتْ عليهِ فِكْرَةُ التَّجديدِ ، على هذا النَّحوِ ، هُوَ : إنَّ العقليَّةَ المِصْرِيَّةَ ، عقليَّةٌ أُوروبيَّةٌ ، أوْ قريبةٌ قُرباً شديداً مِنَ الأُوروبيَّةِ ، ولَها اتِّصالٌ وثيقٌ بالعقليَّةِ اليونانيَّةِ ، وبعيدةٌ كُلَّ البُعْدِ ، عَنِ العَقليَّةِ الشَّرقيَّةِ! وهيَ مُنذُ قَديمِ الزَّمَانِ ـ مُنذُ العَهْدِ الفرعونيِّ ـ لَمْ تتأثَّرْ بالطّارئِ عليها في أيِّ عَصْرٍ ، فَلَمْ تتغيَّرْ بالفُرسِ ولا بالرُّومانِ ، ولا بالعَرَبِ أوِ الإسلامِ . . .

---

(١) محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص١٥٦، ١٥٧.

[وَيُضيفُ قائلاً] : وأنا ـ مِنْ أجْلِ ذلكَ ـ مؤمنٌ بأنَّ مِصْرَ الجديدةَ ، لَنْ تَبْتَكِرَ ابتِكاراً ، ولَنْ تَخْتَرِعَ اختِراعاً ، ولَنْ تقومَ إلاَّ على مِصْرَ القديمةِ الخالدَةِ الفرعونيَّةِ .

[ويَرى أنَّ ما سَلَكَهُ الغَرْبُ ، يَجِبُ أنْ تَسْلُكَهُ مِصْرُ ، في طَرِيقِها التَّجديديِّ].. ومِنْ ذلكَ : تعليمُ اللُّغَتَيْنِ اللاتينيَّةِ واليونانيَّةِ ، في التَّعليم الثّانويِّ ، قَبْلَ العالي ، [وهنا أيضاً] لا يُغني عَنْ تدريسِها في المدارسِ العامَّةِ ، بل استلزاماً . . . [ثُمَّ يقولُ] : ولكنَّ السبيلَ إلى التَّجديدِ ، [حَسَبَ زَعْمِهِ هُوَ :] أنْ نسيرَ سَيْرَ الأوروبيِّينَ ونسلُكَ طَريقَهُم ، لِنكونَ لَهُم أنداداً ، ولِنكونَ لَهُمْ شُركاءَ في الحضارَةِ : خَيرِها وشَرِّها ، حُلْوِها ومُرِّها ، ما يُحَبُّ مِنها وما يُكْرَهُ ، وما يُحْمَدُ مِنها وما يُعابُ) [(١)].

فتجديدُ الفكرِ والتَّعليمِ في مِصْرَ ، والمُجتَمَعِ الإسلاميِّ ، اللَّذَيْنِ رَوَّجَ لَهُما الاستعمارُ الغربيُّ ، وأعوانُهُ مِنْ بني جِلْدَةِ العربِ والمُسلمينَ ، مِمَّن تلقَّوا العَلْمانيَّةَ ، في الجامعاتِ الغربيَّةِ ، لَهِيَ : قضيَّةُ حَقٍّ أُريدَ بها باطِلٌ ؛ لأنَّها دعوةٌ إلى مُسايَرَةِ الأُوروبيِّينَ ، في تفكيرِهِم وفي خُطُواتِ حياتِهِم ، لا سيما في إبعادِ الدِّينِ الإسلاميِّ واللغةِ العربيَّةِ ، عنْ مجالِ التَّرابُطِ بينَ الشُّعوبِ العربيَّةِ من جِهَةٍ ، والمُجتَمَعِ الإسلاميِّ الكبيرِ مِنْ جِهَةٍ أُخرى .

فإذا انتشرتِ العاميَّةُ ، واختَفَتِ اللُّغةُ الفصيحَةُ ، في مهدِها وبينَ أصحابِها وأهلِها . فكيفَ يتفاهمونَ وَيَتخاطَبُونَ ، ويتعارفُونَ ويتآلَفُونَ ؟!

وبأيِّ لُغةٍ يتدبَّرونَ كتابَ ربِّهِمُ الَّذي يعبُدُونَ ؟! وبأيِّ وِحدَةٍ أو تاريخٍ يَعْتَزُّونَ ، ولِمَنْ يَنتَسِبُونَ ؟! هذهِ أسئلةٌ تُوجَّهُ للَّذينَ ، انبهروا في العَلمانيَّةِ المُضَلِّلَةِ التائِهَةِ ، الَّتي تُحارِبُ جميعَ مظاهِرِ الدِّينِ والتَّديُّنِ ، مُحارَبَةً مُشَوَّهَةً .

---

(١) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، لا . ط ، ١٩٣٨م ، ١/١٥-١٨ ، ٢٨٩-٢٩٣ .

لا بَلْ تُعادي كُلَّ ما يَمُتُّ للإسلام بِصِلَةٍ : كاللُّغةِ والثَّقافَةِ الدِّينيَّةِ ، ومناهِجِ التَّعليمِ والدِّراسةِ . حتَّى أَنَّ أَحَدَ عُلماءِ الأزهرِ ، وأَحَدَ قُضاةِ المحاكِمِ الشَّرعيَّةِ[1]، قامَ بِعَرْضِ قَضيَّةٍ باطِلَةٍ ، وهي : أَنَّ الإسلامَ دينٌ لا دولةٌ . هكَذا تَجِدُهُ يقُولُ : (الخِلافَةُ [في الإسلامِ] ليسَتْ في شيءٍ مِنَ الخُطَطِ الدِّينيَّةِ! كلاَّ ، ولا القَضاءُ ، ولا غَيرُها مِنَ وظائِفِ الحُكْمِ ومَراكِزِ الدَّولَةِ ، وإنَّما تلكَ خُطَطٌ سياسيَّةٌ صِرْفَةٌ ، لا شأْنَ للدِّينِ بها!! فَهُوَ لَمْ يَعْرِفْها ولَمْ يُنْكِرْها ، ولا أمرَ بها ولا نَهى عنها ، وإنَّما تَرَكَها لنا لنرجِعَ فيها ، إلى أحْكامِ العَقْلِ ، وتجارِبِ الأُمَمِ ، وقواعِدِ السياسةِ . كما أَنَّ تدبيرَ الجُيوشِ الإسلاميَّةِ ، وعِمارَةَ المُدُنِ والثُّغُورِ ، ونُظُمِ الدواوينِ ، لا شأنَ للدِّينِ بها . . . وإنَّ كُلَّ ما جاءَ بِهِ الإسلامُ مِنْ عقائدَ ومُعاملاتٍ ، وآدابٍ وعُقوباتٍ . فإنَّما هُوَ شَرْعٌ دينيٌّ ، خالِصٌ للهِ تعالى ، ولِمَصْلَحَةِ البشَرِ الدِّينيَّةِ لا غيرَ . [ويُضيفُ قائلاً] : ولايةُ الرَّسولِ [ﷺ] على قَومِهِ : ولايةٌ رُوحيَّةٌ ، مَنشؤُها إيمانُ القَلْبِ ، وخُضُوعُهُ خُضوعاً صادِقاً تامّاً ، يَتْبَعُهُ خُضوعُ الجسمِ . وولايةُ الحاكِمِ : ولايةٌ مادِّيَّةٌ ، تعتمِدُ إخضاعَ الجسمِ ، مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لها بالقلبِ اتِّصالٌ . تلكَ ولايةُ هدايةٍ ، إلى اللهِ [تعالى] وإرْشادٍ إليهِ ، وهَذِهِ ولايةُ تدبيرٍ لمصالحِ الحياةِ وعِمارةِ الأرضِ ، تلكَ للدِّينِ ...

---

(١) العالم الأزهريُّ هو : «علي عبد الرازق» أَحَدُ عُلماءِ الأزهر ، عَمِلَ في القضاء ، لدى المحاكم الشَّرعيَّةِ المِصْريَّةِ . أَلَّفَ كتابَهُ «الإسلام وأُصول الحُكم» ، يحكي [فيه] عَنِ الغَرْبِ ، أكثرَ ممّا يتحدَّثُ [عَنْ] جوهَرِ الإسلامِ ذاتِهِ . وقد تُرْجِمَ إلى اللُّغةِ الإنجليزيَّةِ ، [ويُعْتَبَرُ مِنَ] المراجعِ الأساسيَّةِ لِعِلمِ الاجتماعِ الإسلاميِّ ، في دراسةِ الجامعاتِ الأمريكيَّةِ ، على الخُصوصِ للإسلامِ وتعاليمِهِ ، ويأتي تقويمُهُ على هذا النَّحو ، لا لأنَّهُ يَعْرِضُ فِكْرَةً جديدةً على الغَرْبِ ، في الدِّراساتِ الإسلاميَّةِ ، بل لأنَّهُ صَدَرَ مِنْ مُسْلِمٍ ـ هُوَ عالِمٌ أزهريٌّ ـ وفي ذلكَ ترويجٌ لِفِكْرِ الكِتابِ بينَ الطُّلابِ الغَرْبِيِّينَ ، الَّذين يدرسون الإسلامَ والشُّعوبَ الإسلاميَّةَ . انظر ، محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

وهذهِ للدُّنيا . تلكَ للهِ . . . وهذهِ للنّاسِ . تلكَ زعامةٌ دينيّةٌ . . . وهذهِ زعامةٌ سياسيّةٌ . . . وما أبعدَ ما بينَ السِّياسَةِ والدِّينِ!!) [(1)].

هذهِ دَعوةٌ عَلمانيَّةٌ مَمْجُوجَةٌ ، وتَوجُّهٌ غربيٌّ مَقيتٌ في التَّربيـةِ ، يُبتغَـى مِنْ ورائـهِ : أنْ تنفَصِلَ الرُّوحُ في الإنسـانِ الواحِـدِ ، عـنْ جسـمهِ ، وكأنَّـهُ لا يتبَعُ أحدُهُما الآخرَ . فإنَّ هـذهِ الثُّنائِيَّـةَ في الإنسـانِ ، تُعْتَبَـرُ سـاقِطةً في قيـادَةِ المرءِ وتوجيهِهِ ؛ لأنَّـهُ يستحيلُ أن يكونَ هذا الانفصـالُ : علميّـاً وعمليّـاً . وإنَّمـا هـو أقربُ إلى النَّظريَّةِ الفاشلَةِ .

إنَّ دُعاةَ التَّجديدِ على النَّمَطِ الغربيِّ[(2)]، يُريـدونَ أنْ تكـونَ ثقافتُـنا أُوروبيَّـةً ؛ لكـي نغْـرِسَ في أنْفُسِـنا الحُريَّـةَ والـتَّفكيرَ الجـريءَ ، كمـا يـدَّعونَ . لـذلكَ : يَمقُوتُـونَ اللُّغـةَ العربيَّـةَ ، ويُهـاجمونَ الـدِّينَ الإسـلاميَّ ؛ لأنَّـهُ وعـاءُ العربيَّـةِ ، ويَحُثُّ على دراسَتِها وتَعلُّمِها .

لذا تصدَّى «البهيُّ» لهؤلاءِ الَّذينَ يُريدونَ ، مِنَ التَّربيةِ والتَّعليمِ في مِصْرَ ، أنْ يكونَا تعليماً أوروبيّاً ، لا سُلطانَ للدِّينِ عليهما . لأنَّـهُ كانَ حريصاً على التَّوجيهِ والتَّربيةِ والتَّعليمِ الإسلاميِّ ، فيقولُ :(إنَّ إقامةَ شعائرِ المؤمنِ لا تُؤَدَّى ،

---

(١) علي عبد الرازق : الإسلام وأُصول الحُكْمِ ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٢٥م ، ص ١٨-٤٧ ، ١٠٣-٢١٨ .

(٢) من أبرز دُعاةِ التجديد على النَّمطَ الغربيِّ : «سلامة موسى» : حيثُ نادى المصريينَ في عام ١٩٢٧م : بأنَّهُ يجِبُ علينا أنْ نخرُجَ مِنْ آسيا ، وأنْ نلتَحِقَ بأُوربا . [وكأنه يقولُ] : مِصرُ ليستْ جزءاً مِنْ آسيا . ويقصد بالخروج من آسيا ، هو : الخروجُ من التفكير الآسيوي ، أو بعبارةٍ أُخرى : من الدِّين اللي جانا من آسيا ، وهو الإسلام . وقد هاجم الدين في أكثر من موقع ، وهو يريد من الأدب ، أن يكون أدباً أوروبياً ٩٩ في المائة ، ثم قائماً على المعنى والقصد ، لا على اللفظِ كما كان الحالُ عند العربِ . [ويقولُ أيضاً] : فأنا كافر بالشرق ، مؤمنٌ بالغربِ، [وهو قبطيٌّ أصلاً] انظر ، محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، ١-٢/٢٢١،٢٢٢ .

إلاّ في ظلٍّ رِعايةٍ مؤمنةٍ باللهِ تعالى . ولكي تكونَ التَّربيةُ الأساسيَّةُ ، سائِرَةً في خَطِّ التَّوجيهِ الإنسانيِّ السليمِ - وهُوَ خَطُّ التَّوجيهِ الإسلاميِّ - يجبُ أنْ تعتمِدَ على القُرآنِ الكريمِ ، والسُّنَّةِ الصَّحيحةِ في القَوْلِ والعَمَلِ ، مِمّا يُسْنَدُ للرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ . ومعنى اعتمادُها على هذَيْنِ المَصْدَرَيْنِ : الاحْتِياطُ في الأخْذِ بالشُّروحِ ، والتَّفاسيرِ ، والتَّعاليمِ ، والأقوالِ ، الَّتي قد تُصاحِبُ المبادئَ القُرآنيَّةَ ، وهيَ في ذاتِها بعيدةٌ عن هدفِ هذهِ المبادئ [الغربيَّةِ الدَّخيلَةِ على ثقافَتِنا] . كما يجبُ النَّظَرُ إلى الإسلامِ ، في هذهِ التَّربيةِ الإيمانيَّةِ ، على أنَّهُ منهجٌ للحياةِ الإنسانيَّةِ) (١).

هذا وقد ميَّزَ «البهيُّ» ، في خُطَّةِ إصلاحِهِ واهتماماتِهِ ، بينَ نَوعَيْنِ مِنَ التَّربيَةِ أوِ التَّنشِئَةِ ، في مُجْتَمَعاتِنا الإسلاميَّةِ المُعاصِرَةِ ، هُما :

١- التَّربيَةُ النَّوعيَّةُ : هيَ التَّربيَةُ الَّتي تقومُ على تحصيلِ مجموعاتٍ مِنَ المعارِفِ أوِ الموادِّ التَّعليميَّةِ ، وتستهدِفُ نوعَ العَمَلِ والمِهْنَةِ ، أوِ الحِرْفَةِ الَّتي سوفَ يُباشِرُها الإنسانُ ، بعدَ إتْمامِ تعليمِهِ في الجامعَةِ ، أو في إحدى مدارِسِ الحِرَفِ المُختَلِفَةِ .

٢- التَّربيَةُ الأساسيَّةُ : هيَ تربيَةُ الأهليَّةِ أوِ الصَّلاحيَّةِ ، وهَدَفُها إكْسابُ الفَرْدِ المُتَلَقِي مَهارةً نَوْعِيَّةً عاليَةً ؛ لكي يستطيعَ أنْ يُباشِرَ مِهْنَتَهُ أوْ حِرْفَتَهُ ، مُباشَرَةً إنسانيَّةً كَريمَةً .

يُشيرُ «البهيُّ» إلى التَّربيَةِ النَوعيَّةِ والأساسيَّةِ مَعاً ، جَنْباً إلى جَنْبٍ ، قائِلاً : ينْبغي أنْ يوجَدَ نوعانِ : (مِنَ التَّربيَةِ أوِ التَّنْشِئَةِ في مُجتَمَعاتِنا الإسلاميَّةِ المُعاصِرَةِ ، لا بُدَّ مِنهما ، [بلْ تَجِبُ] مُزاوَجَةُ أحَدِهِما للآخَرِ ، في إعْدادِ الإنسانِ المُسلِمِ ، للحياةِ العمليَّةِ والاجتماعيَّةِ . إذا أُريدَ لَهُ أنْ يكونَ إيجابيّاً ،

---

(١) محمد البهي : التربية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م ، ص١١ .

ومُشاركاً في بناءِ المُجتَمَعِ ، وحَركَةِ سَيْرِهِ ، للغايَةِ المَنْشُودَةِ [مِنْ تعامُلِهِ] مَعَ غَيْرِهِ .

فأمَّا الاقتصارُ : علَى إعْدادِ المُسلمِ ، لِمُجتَمَعٍ مِنْ مُجتَمعاتِنا المُعاصِرَةِ ، في واحِدٍ مِنَ النَّوعَيْنِ [في التَّربيَةِ] ، قَدْ يُفْقِدُهُ الصَّلاحيَّةَ لِلْبناءِ والمُشاركَةِ معاً .

فالتَّربيَةُ النَّوعيَّةُ للمِهْنَةِ أو للحِرْفَةِ ، قَدْ تُخَرِّجُ الإنسانَ صاحِبَ أهليَّةٍ ، في العَمَلِ النَّوعيِّ ، فَحَسْبُ ، إذْ إنَّها : تُخرِّجُ قانونيّاً ... ومُحاسِباً ... ومُهندِساً ... ومُعَلِّماً .... كما قَدْ تُخرِّجُ صاحِبَ مَهارةٍ في الحِرَفِ المُختلفَةِ : في التِّجارةِ . . . في الحِدادَةِ . . . في الكهرباءِ . . . في الميكانيكا . . . ولكنَّهُ فاقِدٌ للتَّعاطُفِ والتَّوادِّ ، مَعَ غَيرِهِ [مِنْ أفرادِ] المُجتَمَعِ ، بسببِ تَحكُّمِ أنانيَّتِهِ فيهِ .

لا غَرْوَ ، فإنَّ المادِّيَّةَ الَّتي تَسودُ المُجتَمعاتِ المُعاصِرَةَ [اليومَ] ، هيَ : طُغيانُ الأنانيةِ والفرديَّةِ ، في مُباشَرَةِ المصـالِحِ . فَلَـمْ يُضْعِفْها التطوُّرُ العلميُّ أوِ الصِّناعيُّ ، الَّذي بَلَغَ أوْجَهُ . كما لمْ يكُنْ عِوضاً للتَّسانُدِ والتَّعاونِ والتَّعاطُفِ ، المنْشُودِ بينَ المُجتمعاتِ والشُّعوبِ [المُعاصِرَةِ ؛ لكَي تَتكامَلَ حضاريّاً] .

فالمُجتَمعاتُ المُتقدِّمَةُ [مَدنيَّةً] : لا تَنظُرُ إلى مَنْ عَداها ، مِنْ مُجتَمَعاتٍ نَظْرَةً إنسانيَّةً ، بلْ نَظْرَتُها إليها ، هيَ : نَظْرَةُ استغلالٍ ، يقومُ علَى تَفكيكِ الرَّوابِطِ فيها ، وإشاعَةِ الفَرْديَّةِ بينَ أعْضائِها .

ثُمَّ التَّربيَةُ الأساسيَّةُ وحْدَها : إنْ أعَدَّتْ إنساناً ذا أهليَّةٍ للعطاءِ ، ولمُشاركَةِ الآخرينَ في مُجتَمَعِهِ ، فإنَّ عَطـاءَهُ الإيجابِيَّ بسببِ قُصُورِ التَّربيَةِ النَّـوعـيَّـةِ أوْ غيابِها ، قَدْ يكونُ غيرَ كافٍ ، أوْ يكونُ قليلَ الجَدْوى في صَلاحيَّتِهِ للآخرينَ .

[فلا مندوحَةَ إذاً مِـنْ لـقـاءِ التَّربيتَيْنِ القائمتَيْنِ : عـلـى الاحـتـرافِ والأهليَّةِ أوِ الصَّلاحيَّةِ معاً ، يَداً بِيَدٍ وحالاً بِحالٍ ؛ لكي يتم التَّطوُّرُ الحقيقيُّ ، والإصلاحُ المنشودُ ، في التَّربيَّةِ والتَّعليمِ] . ويكْفينا أنْ نلتَمِسَ مِنَ القُرآنِ الكريمِ إرشادَهُ ، إلى النَّوعَيْنِ مِنَ التَّربيَةِ ، وضَرورَةِ الحُصولِ عليهِما معاً .

يقولُ اللهُ تعالَى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد: ٢٥).

فرسالَةُ الكتابِ مَعَ الرَّسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، [مِنْ مُقْتَضَياتِها] إقامَةُ العَدْلِ بينَ النّاسِ . ولَنْ يَتحقَّقَ ذلكَ العَدْلُ بينَهم ، إلاَّ إذا اختَفَتْ حِدَّةُ الأنانيَةِ والفَرْدِيَّةِ [مِنْ وجُودِهِم] . وإنَّما تَختفي حِدَّةُ الأنانيَةِ عِنْدَ الأفرادِ ، بالتَّربيَةِ الأساسيَّةِ والإيمانِ باللهِ وَحْدَهُ .

[أمّا] التَّنبيهُ للحديدِ ومنافِعِهِ للنّاسِ ، [الَّذي تَمَّ لَفْتُ النَّظَرِ إليهِ ، كما نوَّهَتِ الآيةُ القرآنيَّةُ الكريمةُ السَّابِقَةُ ، فإنَّهُ :] لا يَتِمُّ إدْراكُهُ إلاَّ بالتَّربيَةِ النَّوعيَّةِ)(1).

وكأنَّ الآيةَ الكريمةَ ، تُوجِّهُ نَظَرَ المؤمنِ إلى أهميَّةِ الكتابِ المُنزَلِ مِنْ عِندِ اللهِ تعالى ، وَصِلَتِهِ بالعَدْلِ بينَ الخلائقِ ، وإلى أهميَّةِ الحديدِ أيضاً ، وما فيهِ مِنْ منافِعَ للنّاسِ ، ووقايَتِهِم مِنَ الأضرارِ . حاثَّةً المؤمنينَ إلى الأخذِ ، بالتَّربيَةِ الأساسيَّةِ والنَّوعيّةِ ، كليهما معاً ؛ لأنَّهما رُكنانِ أصيلانِ للْمَنَعَةِ والقُوَّةِ .

إذْ في الوَقْتِ الَّذي يُعَدُّ فيهِ المؤمِنُ المُتَربي : إلى العَطاءِ والتَّعاطُفِ ، والتَّوادُدِ والتَّعاوُنِ ، مَعَ الآخرينَ في مُجتَمَعِهِ . يُعَدُّ أيضاً إلى مُباشَرةِ مِهْنَةٍ أو حِرْفَةٍ شريفةٍ ، تُساعِدُ في تنميةِ حياةِ النّاسِ ، وَجَلْبِ مَنافِعِهِم وسعادَتِهِم .

ثُمَّ يَتَميَّزُ المؤمِنُ عن طريقِ الازدواجِ بينَ النَّوعَيْنِ مِنَ التَّربيَةِ : بأهْلِيَّةِ العَطاءِ للآخرينَ . مُتَمَثِّلاً في سبيلِ أهْلِيَّةِ مُمارَسَتِهِ لمِهْنَتِهِ أَوْ حِرْفَتِهِ ، فإذا هُوَ مارَسَ عَمَلَهُ ، أيْ قامَ بِهِ ونَفَّذَهُ ، بأحْسَنِ وَجْهٍ وَخَيْرِ أداءٍ ، فإنَّهُ يكونُ حينَها على استِعْدادٍ نَفْسيٍّ للتَّعاطُفِ ، ومَدِّ يَدِ العَونِ ، والمُساعَدَةِ والنُّصْحِ والإرشادِ ، إلى

---

(١) محمد البهي : التربية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، ص ١٣-١٥.

كُلُّ مَنْ يحتاجُ إلى حِرْفَتِهِ أوْ مِهْنَتِهِ ؛ لأنَّ إتقانَ العَمَلِ قَدْ تأصَّلَ في تربيتِهِ وسُلوكِهِ ، فأصْبَحَ يَعْتَبِرُهُ عبادةً للهِ تعالى ، يُثابُ عليها .

وكَما يدعو القرآنُ الكريمُ ، إلى التَّربيَةِ النَّوعيَةِ ، وهيَ تربيَةُ المِهْنَةِ والحِرْفَةِ ، في آيةِ الحديدِ السَّابقَةِ ، فَهُوَ يدعو أيضاً إلى التَّربيَةِ الأساسيَّةِ . وهيَ تَربيَةُ الصَّلاحيَّةِ والأهْليَّةِ ، لمُزاوَلَةِ واستئنافِ العملِ الجادِّ ، والعَطاءِ المُتَميِّزِ ، بروحِ إنسانيَّةٍ ، وفاعليَّةٍ جاذِبَةٍ ، بعيدَةٍ عنْ طُغيانِ الأنانيةِ والفرديَّةِ المَقيتَةِ .

أشارَ الحديثُ الشَّريفُ أيضاً إلى نَوْعَيِ التَّربيَةِ ، عِنْدَ مُقارَنَتِهِ بينَ فَضْلِ العالِمِ على العابدِ . فَعَنْ أبي أُمامَةَ الباهليِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : ذُكِرَ لِرسُولِ اللهِ ﷺ رَجُلانِ : أحَدُهُما عابِدٌ ، والآخَرُ عالِمٌ . فَقالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « فَضْلُ العالِمِ عَلَى العابِدِ ، كَفَضْلي عَلَى أدْناكُمْ » .

ثُمَّ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ اللهَ ومَلائِكَتَهُ ، وأهْلَ السَّماواتِ والأرْضِ ، حَتَّى النَّمْلَةَ في جُحْرِهَا ، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمي النَّاسِ الْخَيْرَ »[1] .

يَتَّجِهُ الحديثُ النَّبويُّ الشَّريفُ ، إلى : أنَّ اللهَ تعالَى ـ فَضْلاً مِنْهُ ـ يَقبلُ العِبادةَ الَّتي أمرَ بها ، وكأنَّها تُمثِّلُ التربيةَ النَّوعيةَ أو الفرديَّةَ إذا كانتْ مُقترِنَةً بالعلمِ المُتْقَنِ ، النَّاتِجِ عَنِ التَّربيَةِ الأساسيَّةِ ، الممزوجَةِ بالقِيَمِ الإنسانيَّةِ .

والحِكْمَةُ الَّتي يَنْشُدُها المؤمِنُ هُنا ، هي : التَّربيَةُ المُتَكامِلَةُ ، حيثُ يُبْنَى عليها : مُسْتَقْبَلُ ازْدِهارِ المُجتَمَعِ ، تطوُّراً وتَقَدُّماً ، حَضارَةً وإصْلاحاً .

فالمُعَلِّمُ الَّذي يُربِّي النَّاشِئَةَ ، ويُعَلِّمُ النَّاسَ الخيرَ ، لا شَكَّ ولا ريبَ ، إنَّهُ أولى النَّاسِ بالتِقاطِ الحِكْمَةِ ، والمُحافَظَةِ على الأفْضَليَّةِ في كُلٍّ مِنَ العِلْمِ والعِبادَةِ ؛ لأنَّهُما صِنْوانِ مُتَلازِمانِ .

---

(١) محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي : مختصر سنن الترمذي ، اختصره وشرح جمله وألفاظه وعلّق عليه ، مصطفى ديب البغا ، رقم الحديث « ٢٦٨٦ » ، ص٣٩٥ .
ورواه الإمام محيي الدين يحيى النّووي : رياض الصالحين ، راجعه وأشرفَ عليه ، محمد علي الصابوني ، رقم الحديث « ١٣٨٥ » ، ص٦١٤ .

وعندما أُهمِلَتْ التَربيَةُ الأساسيَّةُ في كثيرٍ مِنْ مدارسِ المُسلمينَ ، ودور العِلِم لديهم ؛ نَتجَ عَنْ ذلكَ التَّخَلُّفُ العلميُّ ، والانحسارُ الخُلُقيُّ ، وانحرَفَتِ القِيَمُ الرَّفيعةُ إلى أضدادها ، لِهذا فإنَّ الباحثَ يجِدُ (المُجْتَمعاتِ الإسلاميَّةَ المُعاصِرَةَ ، تُعاني مِنْ إهْمالِ التَّربيَةِ الأساسيَّةِ ، في وقْتٍ تَعْتَقِدُ فيهِ : أنَّ التَّربيَةَ النَّوعيَّةَ ، تَحْتَ تأثيرِ العَلمانيَّةِ ، تُحَقِّقُ الهدفَ مِنَ التَّقَدُّمِ ، والحَضارَةَ المنشودَةَ للمُجْتَمَعِ .

لكنْ أيُّ تَقَدُّمٍ تُريدُهُ هذهِ المُجْتَمعاتُ؟ وأيَّةُ حَضارَةٍ تَبْتَغيها؟ أَتُريدُ التَّقَدُّمَ العلميَّ والصِّناعِيَّ؟ أَتُريدُ الحَضَارَةَ المادِّيَّةَ؟ . . . ألا تَعِرفُ هَذهِ المُجتمعاتُ : أنَّ التَّربيَةَ النَّوعيَّةَ ، لا تُغنِي عَنِ التَّربيَةِ الأساسيَّةِ؟ ألا تَعْرِفُ أنَّ سبيلَ التَّربيَةِ الأساسيَّةِ فيها هوَ الإسلامُ ، وأنَّ دَوْرَهُ في هَذِهِ التَّربيَةِ ، قائمٌ مبكِّراً قَبْلَ التَّربيَةِ النَّوعيَةِ : وذلكَ في الأُسْرَةِ ، قَبلَ المدرسةِ . وفي حَضانَةِ الأُمِّ ، قَبْلَ دُوْرِ الحَضانَةِ الخاصَّةِ؟ .

رُبَّما يَظُنُّ بعضُ قادَةِ هَذِهِ المُجتَمعاتِ [الإسلاميَّةِ] ـ تحتَ تأثيرِ العَلمانيَّةِ ، وكَثْرَةِ الحَديثِ عنها ـ أنَّ الإسلامَ يُعارِضُ العِلمَ . . . ويُعارِضُ الصِّناعةَ . . . ويُعارِضُ تطوُّرَ العلمِ وتطوُّرَ الصِّناعةِ . لَكِنْ إذا وقَعَ هذا الظَّنُّ ، لِبَعْضِ قادَةِ هَذِهِ المُجْتَمعاتِ ، فَهُوَ أشْبَهُ بِوَهْمٍ ، يَكْشِفُ ضَبابَهُ : ما في القُرآنِ [المَجيدِ] مِنْ أساسٍ للدَّولَةِ ، ومَنْهَجٍ للدِّيْنِ والتَّربيَةِ .

أَمَّا الإسلامُ نَفْسُهُ : فَهُوَ تَجْرِبةٌ تاريخيَّةٌ ، ونَفسيَّةٌ ، واجتماعيَّةٌ [تربويَّةٌ] : في نَقْلِ الإنسانِ ، مِنْ عاداتٍ وتقاليدَ وأوضاعٍ ، تُعَبِّرُ عَنِ الوَثَنيَّةِ والمادِّيَّةِ والجاهليَّةِ ، إلى عاداتٍ جديدةٍ ، وتقاليدَ أُخرى مُخْتَلِفَةٍ [تماماً] ، تُعَبِّرُ عَنْ إنسانيَّةٍ فاضِلَةٍ ، بينَ [النّاسِ] في المُجتَمعِ [الإسلاميِّ] . فأصْبَحَ المُسلمُ ، يؤْمِنُ بإلهٍ واحِدٍ ، بعدَ أنْ كانَ يُشرِكُ باللهِ تعالى ، ويجعلُ لَهُ أنداداً عديدِيْنَ ، وأصبحَ يرعى الضَّعيفَ ، بَعْدَ أنْ كانَ يَسْتَغِلُّهُ)[1].

---

(١) محمد البهي : التربية في المُجتمعات الإسلامية المعاصرة ، ص ١٦-١٨.

ما كانَ هذا الإصلاحُ الخُلُقيُّ ، والسُّلوكُ النَّوعيُّ ، والشُّعورُ الاجتماعيُّ ، والإحساسُ الإنسانيُّ ، إلاَّ بفضلِ التَّربيَةِ النَّوعيَّةِ والأساسيَّةِ ، الَّتي بَدَّلَ بها الإسلامُ ، المُجتَمَعَ الجاهليَّ الوثنيَّ ، إلى مُجتمعِ الرَّحمةِ والمَحبَّةِ والإيثارِ ، كَنَتيجةٍ طبيعيَّةٍ للتَّوحيدِ ونَبْذِ الشِّرْكِ ، وفي ذلكَ يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٦٤).

فالدَّولةُ الإسلاميَّةُ ، كما تُوضِّحُ الآيةُ الكريمةُ ، هيَ : دولَةٌ إنسانيَّةٌ عالميَّةٌ ، تُنادي بالمُستوى التَّربَويِّ الإنسانيِّ الفاضِلِ ، القائمِ على التَّوحيدِ لله تعالى ، والتَّوجُّهِ إليهِ سُبحانَهُ وتعالى وحْدَهُ إيماناً وعبادَةً ، المبنيِّ على التَّسامُحِ والتَّواضُعِ ، والاعتدالِ والاستقلالِ ، الضَّامِنِ لِحُقُوقِ جميعِ أفرادِ المُجتَمَعِ ، باعتبارِهِ البَشَريِّ والإنسانيِّ . كُلُّ هذهِ المعاني السَّاميَة ، هيَ : نِتاجُ التَّربيَةِ الأساسيَّةِ التي يأمُرُ اللهُ عزَّ وجلَّ بها في قولِهِ سُبحانَهُ وتعالى :

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

(الشورى : ١٥).

يوجِّهُ الله تعالى الأمرَ إلى رسولِهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ، ولأُمَّتِهِ مِنْ بَعدِهِ : بالدَّعْوَةِ إلى توحيدِ اللهِ تعالى ، والاستقامَةِ على ذلكَ ، وأنْ يُعلِنوا تَجْديدَ الإيمان بالدَّعْوَةِ الواحِدَةِ ، الَّتي شَرَعَها اللهُ سُبحانَهُ وتعالى للنَّبيِّينَ أجمعينَ . إنَّها إذاً : القيادةُ التَّربويَّةُ الأساسيَّةُ ، الحانيَةُ الجديدةُ ، البعيدَةُ عَنِ الأهواءِ ، هيَ : (القيادةُ الحازِمَةُ الحاسِمَةُ ، المُستَقيمةُ على نَهجٍ واضحٍ ، ويَقينٍ ثابتٍ . تَدْعو إلى اللهِ تعالى على بصيرَةٍ ، وتستقيمُ على أمرِ اللهِ سُبحانَهُ دونَ انْحِرافٍ ، وتَنأى

عَنِ الأهواءِ المُضطرِبَةِ المُتناوِحَةِ هُنا وهُناكَ . القيادَةُ الَّتي تُعْلِنُ وحْدَةَ الرِّسالَةِ ، وَوحْدَةَ الكتابِ ، وَوحْدَةَ النَّهجِ والطَّريقِ . الَّتي تَرُدُّ الإيمانَ إلى أَصْلِهِ الثَّابتِ الواحِدِ ، وتَرُدُّ البشَرِيَّةَ كُلَّها ، إلى ذلكَ الأَصْلِ الواحِدِ . . . ثُمَّ هوَ الاستعلاءُ والهَيْمَنَةُ بالحَقِّ والعَدْلِ ، فَهيَ قيادةٌ ذاتُ سُلطان . تُعْلِنُ العَدْلَ في الأَرضِ بينَ الجميعِ . . . تُعلِنُ الرُّبُوبِيَّةَ الواحِدَةَ ، كما تُعلِنُ فَرْدِيَّةَ التَّبِعَةِ . . . وتُعلِنُ إنهاءَ الجَدَلِ بالقولِ الفَصْلِ ، بتوكيلِ الأمرِ للهِ تعالى ؛ [لأنَّه] صاحِبُ الأمرَ الأخيرَ ، [وحُجَّةُ التَّوحيدِ دامغةٌ ؛ لأنَّها مَطْروحةٌ لاختيارِ جَميعِ المخلُوقينَ ، مِنَ النَّاسِ في الدُّنيا ، ثُمَّ في الآخِرَةِ إلى اللهِ تعالى وَحْدَهُ] المصيرُ)[1].

مِنْ خلالِ الآيةِ السابقَةِ : يَكْشِفُ القُرآنُ الكريمُ ، طبيعةَ التَّربيَةِ النَّوعيَّةِ والأساسيَّةِ ، الَّتي تَهتَمُّ بالعقلِ البشَريِّ . لِشَحْذِهِ وتَدْريبِهِ على التَّفكيرِ والاستنتاجِ ، وإعْطائِهِ الفُرصَةَ لِيُمارِسَ الحُكْمَ على الأشياءِ . ثُمَّ استخلاصاً للمبادئِ العامَّةِ ، مِنَ الجُزئياتِ العديدَةِ المَبْثُوثَةِ في الكونِ ؛ لكَي يُدرِكَ الإنسانُ الظواهِرَ الطَّبيعيَّةَ الَّتي يعيشُها ، وسُنَنَ اللهِ تعالى فيها .

لهذا فإنَّ الإسلامَ يُشَجِّعُ على العِلمِ ، بل ويدعو إليهِ ، ويَعتَبِرُهُ عبادةً ، ثُمَّ يَمقُتُ الجَهْلَ وسياسةَ إشاعَةِ نَشرِ الأُميَّةِ ، وتَعويقَ التَّنويرِ الذِّهنيِّ ؛ لأنَّها ضِدُّ الطَّبيعةِ البشريَّةِ ، حيثُ لا تلتقي إطْلاقاً مَعَ فطرةِ العَقْلِ الإنسانيِّ ، الَّذي هُوَ مَناطُ التَّكليفِ .

أمَّا الاتِّجاهُ العالميُّ اليومَ في التَّربيَةِ والتَّعليمِ : (ليسَ اتِّجاهاً إنسانيّاً ، بِقَدْرِ ما يَحْمِلُ خصائِصَ التُّراثِ الفكْريِّ والإنسانيِّ ، لِدَوْلَةٍ مِنَ الدُّولِ الكُبرى ، أوْ خصائِصَ مَجموعَةٍ مِنَ الشُّعوبِ ، الَّتي تَفرَّعَتْ عَنْ أصلٍ واحِدٍ . . . فَمُنَظَّمةُ اليونسكو : وهيَ إحْدَى مُنظَّماتِ هيئَةِ الأُممِ المُتَّحِدَةِ ، [الَّتي يُفْتَرَضُ أنْ تكونَ وظيفَتُها مُباشَرَةً] التَّقريبِ بينَ الشُّعوبِ ، عَنْ طَريقِ التَّربيَةِ والتَّعليمِ . [لكنَّها

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ٧/٢٧٧ ، ٢٧٨ .

وللأسَفِ الشَّديدِ بِحُكْمِ تَكْوينِها الحالِيِّ] : يَغْلِبُ عَليها الطَّابَعُ الغربيُّ ، أوْ طابَعُ الثَّقافةِ الغَربيَّةِ ، وهيَ ثقافَةُ الشُّعُوبِ الَّتي تُوازِرُ الدِّيمُقراطيَّةَ الرأسْماليَّةَ ، في مُواجَهَةِ التَّحَدِّي الشُّيوعيِّ . [حيثُ لا ناقةَ للتربيَةِ الإسلاميَّةِ فيها ولا جَمَلَ] .

إنَّ توجيهَ التَّربيَةِ والتَّعليمِ العالَميِّ لليونسكو ، إذاً : لا يَصْلُحُ لِكُلِّ [الشُّعُوبِ] والمُجْتَمَعاتِ البَشَرِيَّةِ ؛ فَهُوَ لا يستطيعُ مثلاً : عَنْ طريقِ ثقافةٍ مُشْتَرَكَةٍ ، أنْ يُقَرِّبَ بيـنَ الأيديولوجيَّةِ الدِّيمُقراطيَّةِ الرأسْماليَّةِ ، والأيديولوجيَّةِ الشُّيوعيَّةِ ، [أوِ الثَّقافةِ العربيَّةِ الإسلاميَّةِ ، لِكَي] يُحقِّقَ بذلكَ الوحْدَةَ العالَميَّةَ .

مِنْ هُنا لا يَستطيعُ توجيهُ مُنَظَّمَةِ اليونسكو ، أنْ يُهيئَ الجوَّ الَّذي يُعينُ العقلَ البَشَريَّ ، عَلى الحُكْمِ الصَّحيحِ ، [في] الإرادَةِ الإنسانيَّةِ [السَّوِيَّةِ ، أوِ تَقْويمِ] السُّلوكِ الإنسانيِّ [الجادِّ] ، الَّذي ينفَعُ ولا يَضُرُّ ، ويُطَمْئِنُ ولا يُقْلِقُ ، ويُؤاخي ويوائِمُ ، في العَلاقاتِ بينَ الشُّعُوبِ) [(١)].

فالتَّربيَةُ أوِ التَّوجيهُ الإنسانيُّ بشَكْلٍ عامٍّ ، يحتاجُ إلى دينٍ للإنسانيَّةِ ، ألا وهُوَ الإسلامُ ؛ لأنَّهُ رسالَةُ اللهِ تعالى الخالدةُ الثابتةُ المُستقيمةُ ، إذْ تتَّسِمُ بِمُرونةِ أحْكامِها ، وأصالَةِ عناصِرِها ، مِنْ أجْلِ أنْ تتَّسِعَ ، لِمُقْتَضَياتِ الحالِ ، وفقَ مصادِرِ التَّشريعِ الإسلاميِّ ، وقواعِدِهِ العامَّةِ . لا سِيَّما بعدَ أنْ فَشِلَتْ الإيديولوجيـاتُ الغربيَّةُ والشَّرقيَّةُ ، فـي إعـدادِ النَّاشئَةِ عـلى التَّربيَةِ الأساسيَّةِ ـ القائمَةِ على الأخلاقِ الكريمَةِ ، والقِيَمِ الرَّفيعةِ : كالعَطْفِ ، والتَّعاونِ ، وحُبِّ الآخرينَ ، والإيثارِ ـ لأنَّها هيَ أصلاً تَفْتَقِدُها ، وفاقِدُ الشيءِ لا يُعطيهِ .

أمَّا الإسلامُ : (فَهُوَ الدِّينُ المُرشَّحُ لقيادةِ التَّربيَةِ والتَّعليمِ ، والثَّقافَةِ العالميَّةِ ؛ لأنَّـهُ : مَنْهَجٌ لِحياةٍ إنسانيَّةٍ ، يدعو إلى التَّفكيرِ . . وإلى العِلْمِ . . وإلى القُوَّةِ ، كما يدعو إلى الأُخُوَّةِ ، والتَّعاوُنِ ، ونَبْذِ العداءِ والاعتداءِ ، والظُّلمِ .

---

(١) محمد البهي : الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر «مشكلات الحكم والتوجيه» ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٢م ، ص ١٦٨-١٧١ .

إنَّ كُليَّاتِ التَّربيَةِ في المُجتَمعـاتِ الإسـلاميَّةِ ، أمينـةٌ قَبلَ كُـلِّ شيءٍ ، عَلَى خصـائص هـذهِ المُجتَمَعـاتِ ومُقوِّماتِهـا ، وعَلَـى رَبـطِ حاضِـرِها ومُسْـتَقبَلِها بماضِيها ، وعلى استقلالِها عَنِ الشَّرقِ والغَرْبِ معاً . لذلكَ إذا كانـتْ حريصـةً ، على الأخذِ بما في تاريخِ التَّربيَةِ ، مِنْ مَعـالِمَ واضحَةٍ : فإنـَّها يجِـبُ أنْ تكـونَ أشَدَّ حِرْصاً ، [في الاسترشادِ ، والانتِقاءِ مِنْ] تاريخِ المُجتمعاتِ [الأُخـرى] بمـا يُمَيِّزُها عَنْ غيرِها ، وبِما يُوضِّحُ خطَّ مُستَقبَلِها .

إنّنا إذا تجاوَزْنا الإسلامَ في التَّربيَةِ ، نكونُ بِذلكَ قَدْ تَجاوَزْنا الماضِيَ ، وخَسِرنا المُسْتَقبَلَ مَعَهُ . [لأنّـنا سوفَ نُخرِّجُ] إنساناً [مُشوَّهاً سُلوكيًّا وتربويًّا] يَعيشُ على أرْضٍ إسلاميَّةٍ ، [لكنَّهُ يَنمُو في سماءٍ مَكْشُوفَةٍ لا يَتَظَلَّلُ بها ؛ بِسَبَبِ تَنشِئَتِهِ وغُرْبَتِهِ التَّربَويَّةِ عَنها .

فلا يَعْرِفُ حُقُوقَهُ فَضْلاً عَنْ واجباتِهِ . مَعَ العِلْمِ ، بأنَّ :] نَهضَةَ المُجتَمَعاتِ الإسلاميَّةِ المُعاصِرَةِ ، تتوقَّفُ [اليومَ] أولاً : عَلَى نُموِّ الإحْساسِ بالواجِبِ ، وأدائِهِ في رَقَابَةٍ ذاتيَّةٍ ، وَخَشْيَةٍ مِنَ اللهِ سُبحانَهُ وتعالَى،ثانياً) [1].

بهذا يكونُ «البهيُّ» قَدْ أشارَ إلى أهميَّةِ التربيةِ النَّوعيَّةِ والأساسيَّةِ في الإسلامِ ، وإنَّ المُعَلِّمَ في المُجتمعاتِ الإسلاميَّةِ المُعاصِرَةِ ، يجبُ أنْ يكونَ : الرائِدُ في المعارِفِ ، الَّتي يَنقُلُها بينَ تلاميذِهِ ، والقُدْوَةُ المُثْلَى في أداءِ الواجبِ . كَما أنَّ طالِبَ العِلْمِ ، ينبغي أنْ يكونَ جادّاً في تلقِّيهِ للعلومِ المُتنوِّعَةِ ، ولَديهِ الاستعدادُ النَّفسيُّ والعمليُّ ، في استقبالِ كُلِّ تطويرٍ وتجديدٍ ، للمهاراتِ والمعارِفِ ، سواءٌ في آليّاتِ التَّنفيذِ ـ كالوسائلِ والأساليبِ والأنشطَةِ ـ أوِ المُخرَجاتِ التَّعليميَّةِ ، وأدواتِ قياسِها . فينتُجُ عَنْ ذلكِ ما يُسمَّى بالمُعاصَرَةِ والأصالَةِ ، الَّتي تُكَوِّنُ التّكامُلَ التَّربويَّ .

---

(١) محمد البهي : التربية في المجتمعات الإسلاميّة المعاصرة ، ص ٢١ ، ٢٢ .

وَمِنَ الأمثلَةِ في ذلكَ : عندما أرادَ « البهيُّ » تطويرَ التّعليمِ العلميِّ والعَمليِّ ، وجَدَ أنَّ الطّالبَ يحتاجُ ، في المعاهدِ الدّينيَّةِ : الابتدائيَّةِ ، والإعداديَّةِ ، والثّانويَّةِ ، إلى تعليمِهِ موادَّ جديدةٍ ، لمْ تَكُنْ في برامجِ الدِّراسَةِ الأزهريَّةِ التّقليديَّةِ مِن قَبْلُ ، فكانَ السبيلُ للوصُولِ إلى هدفِهِ ، هُوَ : (إعادةُ النَّظَرِ في برامجِ هذهِ المعاهدِ ، في مراحِلِها الثّلاثِ ، والتّنسيقُ بينَ ما هُوَ قديمٌ وما هُوَ مُسْتَحْدَثٌ ، بحيثُ لا يُمَسُّ جَوهَرُ التّعليمِ الدّينيِّ والعربيِّ ، لا كمّاً ولا نوعاً . [فَيَنْتُجُ عندَئذٍ ما يُسمَّى] : إيجابيَّةُ المُزاوَجَةِ بينَ القَديمِ والمُسْتَحْدَثِ ؛ [لِكَي] يتَحَقَّقَ لَدى الطّالبِ ، مِنَ المَعْرِفَةِ الجديدَةِ ، ما يُساعدُهُ على الدِّراسةِ والتّفوُّقِ فيها) [1].

التَّربيَـةُ في الإسلامِ إذاً : توجيهٌ إلى مُستوًى إنسانيٍّ فاضِلٍ ، وليسَ دينَ طُقوسٍ ، ورُسومٍ لاهوتيَّةٍ . كما أنَّها تُؤَمِّنُ للإنسانِ ، الحاجاتِ الأساسيَّةَ النَّفسيَّةَ ، الّتي لا بُدَّ مِنْ إشْباعِها ، مِثْلُ : حاجتِهِ إلى الأمْنِ والحُريَّةِ ، وإلى النَّجاحِ والانتماءِ ، والاستقلالِ والتّقدير .

• • •

(١) محمد البهي : حياتي في رحاب الأزهر ، طالب . وأُستاذ . ووزير ، ص٧٤ .